

الجزء الأول

obeikandi.com

## جان جاك روسو

١

ولد جان جاك روسو بمدينة جنيف من أعمال سويسرا في ٢٨ من يوليو سنة ١٧١٢ من أبوين من أواسط الناس هما إسحاق روسو صانع ساعات وسوزان برنار ابنة رجل أنعم من زوجها حالاً ويشغل بمهنة التعليم . ولقد كان رابع جد لروسو لأبيه من باعة الكتب في باريس ومن بين الذين اضطرتهم الفظائع والاضطهادات الدينية التي شهدتها القرن السادس عشر لهجروا فرنسا . أما جده لأمه فكان راهباً بروتستانتيّاً ممن احتموا في الجمهورية السويسرية من اضطهاد الكاثوليك في ذلك العهد . وقد قضى ميلاد جان جاك على حياة أمه فبعث وتها إلى نفس أبيه أكبر الحزن والأسى . ذلك لما كان بين الزوجين من حب لا يكاد يتصوره العقل . حب نشأ معهما حيث بدأ وكلاهما في التاسعة من عمره ثم نما وتجسم وبلغ حد الهيام حتى اضطر إسحاق للسفر طلباً لنسيان فتاة ربت منعها تفوق مركزها عليه عن الارتباط معه برباط الزوجية . لكن سفره لم يزد إلا هياماً ولوعة . ورجع فوجد محبوبته على عهد ووجد أخا سوزان قد علق أخته هو وطلبها لنفسه فطلب إسحاق يد سوزان مقابل أخته وهكذا تم زواجهما . وكانت سوزان جميلة حية أديبة وموسيقية محاطة بالمعجبين إلى حد جعلها برغم طهرها منظوراً إليها في مدينة (كالفن) <sup>(١)</sup> بعين الشك . أما إسحاق فكان صانع ساعات ومعلم رقص خفيف الروح خيالي الطبع ميالاً إلى الكسل كثير المشاغبة . ولقد رزق منها ولداً بعيد زواجهما ثم اغترب إلى القسطنطينية ليكون صانع ساعات في سراي السلطان كما يقول جان جاك أو عامل ساعات لسكان بيريه البروتستانتين في رأى أوجين دتر . وبقي هناك ست سنوات ( من ١٧٠٥ إلى

(١) كالفن أحد مؤسسي البروتستانتية ومدينته جنيف

(١٧١١) كانت زوجته في خلالها موضع ميول وأهواء الكثيرين ، وأخيراً استرجعته . وكان جان جاك الثمرة التعيسة لتلك العودة إذ قضت أمه نحبها بعد ثمانية أيام من ولادته وهي في حمى النفاس .

ولم يتعز إسحاق عنها ولم يجد ما يخفف من ألمه ويهون عليه مصابه إلا البقاء إلى جنب ابنة . وظل معه السنين الأولى من حياته . ولما بلغ الغلام السادسة من عمره ابتدأ يعود القراءة . وجعلا يقضيان الليالي في قراءة روايات تركتها أمه ويصرفان في ذلك معظم الليل . وكثيراً ما آذن الصبح وهما على هذه الحال فكان داعيها إلى الهجوع والنوم .

واستمر كذلك زمناً . وكان أحب الكتب إلى جان جاك « بلوتارك » عن حياة العظماء . وبعد سنتين اضطرت بعض الحوادث أباه ليغترب عن سويسرا . ذلك أن شحنة قامت بينهم وبين من يدعى بول جوتيه ورأى أن ماله السجن لا محالة ، ففضل الهرب وعهد بروسو إلى خاله برنار الذي أرسله مع ابن له إلى (بوسى) عند معلم يدعى لامبرسيه . ولهذا المعلم أخت في الأربعين من عمرها كانت تقوم على الطفلين قيام الأم وتعنى بتربيتهما .

قضى روسو قسماً من أسعد أيام حياته عند المسيو لامبرسيه . كان معزراً محبوباً يعلمه أستاذه على طريقة من أحسن الطرق ويوجب إليه العمل بكل الوسائل . وكانت مدموازل لامبرسيه لا تترك فرصة في الليل ولا في النهار إلا أرادت أن تجعل للطفلين منها ربحاً للحياة ومكسباً ، ولقد دعت هذه العناية من جانبها أن يتعلق جان جاك بها أشد التعلق ، وكان في هذا كما كان في غيره ذا طبع خيالي دنف أورثته إياه أمه وخيال قوى متشرد أورثه إياه أبوه . لذلك فما أسرع ما انتقل تعلقه بمربيته إلى هيام دفعه ليجعل منها موضع حبه ويتودد إليها تودد المدنف إلى معشوقته . وما كانت هي لتظن شيئاً من هذا . فإن طفلاً في العاشرة أو الحادية عشرة من عمره لا يمكن أن يتصور فيه مثل ذلك الميل وخصوصاً إلى فتاة تبلغ الأربعين .

لكن هكذا كان . وإلى القارئ بعض أقوال روسو في اعترافاته عن ذلك :  
« ولما كانت مدموازل لامبرسيه تحبنا حب الأم فلقد كان لها علينا سلطتها ، وكانت تصل بهذه السلطة إلى معاقبتنا كلما استحققتنا العقاب ، وقد قصرت عقابها

زمناً على تهديد كنت أخشى أشد الخشية تحققه ، غير أنه لما تحقق تبين لي أنه أقل شدة بكثير مما كنت أتوقع ، بل الغريب أن العقوبة زادني حباً في تلك التي أوقعها ، ولولا كل حبي لها ورقى الطبيعية لما امتنعت عن استشارة ما يستحق هذا العقاب ، فقد وجدت في الألم والخجل الذي يعقبه شيئاً من اللذة زاد عندى الرغبة في أن ينالني من التي أنالتيه على الخوف من أثره .

وانحصر حب روسو لمدموازل لامبرسييه في تصورات وأحلام لا يمكن لطفل في سنه أن يصل إليها مهما بلغ من خياله . وقد استشعرت الفتاة ميله فلم تعد تسمح له ولا بن خاله بالنوم في غرفتها واعتبرتهما في سن لا يجوز ذلك معها . وسيرى القارئ أن هذا النوع الخيالي من الحب هو الذي تخلل حياة جان جاك كلها وأنه سيكون ذا أثر كبير في كتاباته ومؤلفاته . وهو يركز على خيال قوى وعلى حياة كثير . ولروسو حظ وافر من الصفتين كثيراً ما جعله يخطئ في النظر لنفسه وللأشياء فيعد إحجامه المبني على الحياء أنفة وخيالاته الموهومة حقائق وأفكاراً .

ومع هذه الثورة التي يحكى لنا عنها روسو في وصف حبه لمربيته فإن هذا الحب لم يكن إلا عاطفة قلبية بريئة أصح أن تسمى عطفاً وتعلقاً كبير في نفسه بتأثير خياله المتوقد وميوله النفسية التي صرفت حياته إلى حد كبير ، بل التي أثر بها أكبر الأثر في أدب عصره .

وبعد أن ظل خمس سنين عند المسيو لامبرسييه ومعه ابن خاله الذي كان مرتبطاً وإياه برباط صداقة في غاية المانة - خمس سنين عرفا فيها كثيراً وجال فيها جان جاك جولات واسعة وسط الأحراش والمزارع التي تحيط ( بيوسى ) وملاً منها عينه واختزنها في مخه لتخرج يوماً إلى الناس من نفثات قلمه - حدثت مسألة تافهة كانت السبب في تركهما هذا المكان الذي متعهما بسعادة طويلة . ذلك أن كسر مشط لمدموازل لامبرسييه واتهم روسو بأنه الذي كسره فأنكر وأصر على الإنكار وازداد إصراراً لما انتهره معلمه ودعى خاله برنار لتحقيق المسألة وانتهت أخيراً بانفصال الغلامين عن معلمهما .

فلما ترك جان جاك معلمه خطر له أن يذهب فيزور أباه في ( نيون ) وهناك التقى بدمموازل ( فلسن ) مع أمها . وما كاد يراها حتى نسي ما كان له من

علاقة سابقة مع مدمواز لامبرسييه وابتدأ خياله يصور له نوعاً من الحب جديداً . ولقد كان إذ ذاك في سن تسمح له بتصور شيء من معنى اختلاط الجنسين . لكنه لم يعبأ بذلك وجعل كل ميله إليها ميل عطف مشوب بشيء من حب الاستئثار بها حتى لم يكن يسمح لأحد في حضرته أن يقترب منها . على أن ذلك لم يمنعه من أن تكون له بفتاة أخرى تكاد تعدله في السن وتدعى مدمواز (جوتن) علاقات عطف من نوع آخر . وكان هذا الطفل المتدرج إلى الشباب كان يريد أن يرضى كل شهوات خياله على مختلف ما يصور له من أنواع الميل والعطف . ففي حين كان ميله لمدمواز (فلسن) - وكانت يومئذ تبلغ الثلاثين من عمرها - ميل ظهور أمام الناس حتى إذا خلاها اعتاده الخجل واحتار في أمره إلى أن تنجيه الجماعة فترجع إليه صبوته ونشوته . كان ميله لمدمواز (جوتن) ممزوجاً بشيء من الخضوع لإرادتها والإذعان لسلطانها . وبينما كان يريد الاستئثار بفلسن كانت جوتن هي المستأثرة به المنسية إياه ما سواها في كل لحظة وجد معها . ولم يعلم أحد بحبه لهاته الأخيرة إلا متأخراً وما كادوا يعلمون حتى فصلوه عنها .

ولمعد أعان جان جاك على كسب عطف هاتيك الفتيات جمال في صورته وبريق غير عادي في نظراته ودقة في فمه أقرب لأن تكون نسائية مبدعة . هذ فوق أن الخجل في الشبان يستدعى عطف الكثيرات من الفتيات اللاتي يرين فيه ما يسمح لهن من غير خجل أن ينتهين بمن يعطفن عليه . وجان جاك على ما عرف القارئ خجول كثير الحياء .

ولقد كانت هذه الزيارة لأبيه آخر سعد طفولته . وكانت عودته بعد ذلك إلى خاله برنار في جنيف مبدأ نحس طويل . فبعد أن أقام زمناً في (نيون) وغادرها راجعاً إلى مستقره أرسل به خاله إلى أحد (الكتبة العموميين) ليأخذ عنه الحرفة. وأطراه خاله للمسيو (ماسرون) عندما ذهب به إليه . لكن تلك الحرفة لم ترق في عين روسو وصدف عنها وأظهر فيها التباطؤ والخدمول إلى حد اضطر معلمه أخيراً لطرده بعد أن أرهقه سوء معاملة ظناً منه أن ذلك ربما يرد إلى تلميذه بعض النشاط والاهتمام .

هنالك أرسل به خاله ليحترف النقش عند معلم يدعى (دكسون) ليعده

للاشتغال من بعد ذلك في صناعة الساعات ويزاول المهنة التي زاولها أبوه من قبله . وأحس الغلام بشيء من الميل إلى هذه الحرفة . لكن معلمه وكان فظاً غليظاً كان يحسب أن الوسيلة الوحيدة لتعليم الأولاد هي إرهابهم بالعقاب . لذلك ولما كان يجده روسو من الميل إلى النقش ابتدأ يشتغل سراً ومن وراء معلمه بأعمال أخرى متعلقة بالنقش . من ذلك أنه ابتدأ ينقش لأصحابه طرراً يلعبون بها . غير أن معلمه ما لبث أن اكتشف ما يعمل حتى انهال عليه وأوسع ضرباً مدعياً أنه يقلد نقود الجمهورية .

« ولقد كان من أثر ظلم معلمى واستبداده أن كرهه لنفسى عمداً ربما كنت أحببته وحملت نفسى رذائل كنت لولاهما أبعضها ، وكان من بين هذه الرذائل الكذب والكسل والسرقة » . وابتدأت نفس روسو حينذاك تحبث وتنحط وابتدأ ما كان كسبه من قراءته أيام الطفولة ومن تعاليم المسيو لامبرسييه ومن عطف الناس عليه يتدنثر بدثار كثيف من النقائص المشينة . فكثرت أكاذيبه وسرقاته وازدادا خمولاً وضعف ، وبمقدار ما كان يوغل في ذلك كانت عقوبات معلمه تزداد وتشتد . وصغر هو أمام ذلك إلى حد أصبح العقاب معه أمراً عادياً بسيطاً يحتسله من غير ألم وبلا امتعاض ، وكأنه كان يراه المقابل الطبيعى لعلمه وبلركزه .

ولقد ظل على هذه الحال زمناً طويلاً . لذلك لا يعجب القارئ إذا قلنا له إن هذه الصفات التي نمت فيه في أثناء هذه الفترة من حياته بقيت معه إلى حد ما طول أيامه . بل لقد حكى هو في اعترافاته أنه في الخمسين من عمره اختلس نقوداً بأن رد ( تذكرة ) في ( الأوبرا ) كان اشتراها له صديقه ( فرانكى ) ليقتضى الليلة معه وأخذ ثمن التذكرة من جديد وخرج . ولولا ذلك الزمن النحس الذى قضاه يقاسى الألم والتعس لما وجدت كل هذه المفاسد إلى نفسه سيلاً .

وكان حظ روسو من سرقاته أيام اشتغاله بتعلم النقش أن يصل إلى شيء من التقود يشارك به خلانه في مسراتهم . فلما طال به ذلك ابتدأ يعاوده الملل وراجع نفسه شيء من سابق أنفثها . فأكب من جديد على القراءة ، وانصب عليها بشكل جنونى . فلم يترك كتاباً وقع تحت يده إلا قرأه ولا ترك وسيلة يقتنى بها الكتب إلا عمد إليها . وكان ينفق ما يصل ليده من زهيد النقد في استعارة الكتب من تاجرة

هناك كانت لا تأمى إقراضه . وألهاه ذلك عن سابق مفساده فنى ما تورطت فيه نفسه من النقص ولم يترك فرصة يستطيع فيها القراءة من غير أن يغتبتها .

ولم ينس الخروج إلى الغابات والمزارع للرياضة الوقت بعد الوقت من بعد أن أحس بعظيم لذة الطبيعة فى نضرتها أيام مقامه ( ببوسى ) لكنه تأخر أكثر من مرة عن الدخول قبل إقفال أبواب المدينة فأنهى معلمه عليه لظماً ولكمأ . وبينما كان فى الغاب يوماً ورجع إذا الأبواب تقفل فى وجهه وفى وجه إخوان معه . هنالك حلف لا دخل المدينة ولا رجع إلى ما كان فيه وغادر جنيف هائماً على وجهه .

إلى ذلك اليوم كان جان جاك بروتستانتيّاً كما ولد . وإلى ذلك اليوم عاش تحت سيطرة أهله ؛ إن أباه أو خاله ، وعاش عيش أمثاله الشبان الذين هم فى سنه ، لكنه امتاز دائماً بحدّة خيال غريبة ما أكثر ما كانت سبب شقائه . ومن يومئذ انتهى ذلك العيش المنتظم على ما يظن الكافة ، وابتدأ جان جاك حياته المتشردة . وكان إذ ذاك فى السادسة عشرة من عمره .

خرج من جنيف وقد اعتقد نفسه فك من رباط الأسر وأصبح قديراً على الوصول لأرقى الغايات . قال : ودخلت العالم العظيم بكل ثقة آملاً أن مواهبى ستحف به وأنى سأجد عند كل خطوة أخطوها أعياداً وغنائم وأصدقاء يرجون خدمتى ورفيقات كل غرضهن أن يعجبني . على أنى لم أكن أريد أن يشغل بى العالم كله بل كنت مكثفياً بأن تحيط بى جمعية جميلة تنسى ما سواها . . ووقفت أطماعى على الوجود فى قصر تخصصنى فيه عناية السيد والسيدة وتصبح البنية فيه رفيقى والابن صديقى والمجاورون فى حمايتى » .

هذه أطماعه يومئذ ومن خلالها يرى القارئ جان جاك الخيالى السابح فى بحار الوهم البعيد عن حقيقة ما يحط ببنى آدم الذين يتشردون . على أن أول أسفاره لم تكن من التعس لتصدّه وترجعه إلى أهله وعشيرته ، بل كان فيها ما شجعه على الاستمرار ليقدف به ذلك فى مهاوى الشقاء .

ترك جنيف واستمر فى سياحاته حتى وصل إلى ( كوفنبيون ) فى بلاد السافوا وهناك التقى بقسيس هذا البلد المسيو ( بنتفير ) . فأحسن القسيس لقاءه وأكرم رفته وأجلسه وإياه على مائدة ما كان روسو ليحلم بها وجعل يكلمه فى أمر عقيدته طمعاً فى نقله من بروتستانتيته إلى الكثلثة . وما كان مثل هذا الخاطر ليمر ببال

شاب كجان جاك ولا هو فكر فيه ساعة كان يكلمه القس في أمره ، وإنما سكت استبقاء لحسن اللقيا وكرم المضيف . وحين أراد هذا الأخير وداع جان جاك زوده برسالة إلى سيدة في ( أنسى ) هي مدام دى فارنس التي شغلت قسماً مهماً من حياة روسو على ما سيرى القارئ . فضل يتلأأ طوال الطريق حتى بلغ ( أنسى ) بعد ثلاثة أيام قضاها في التجوال وشبه السؤال . وهنا نترك الكلمة لجان جاك نفسه وننقل للقارئ شيئاً من اعترافاته :

« كنت يومئذ في منتصف السادسة عشرة من عمري . ومن غير أن أكون شاباً جميلاً قد كنت منتظم القامة جميل القدم دقيق الساق حي الوجه صغير الفم فاحم لون الشعر صغير العينين داخلهما ولكنها كانتا شديدي البصيص تقدفان كل ما في دمي من حرارة . على أني مع الأسف لم أكن على علم بهذا وما علمته في حياتي إلا بعد أن أصبح علمي به غير مجد نفعاً .

« ولقد كان يحيل لي أن تلك السيدة التي دلتني عليها المسيوبونتفير لا يمكن أن تكون إلا بتولا شمطاء فما رأيت ( حين التفاتها إلي وفي ممر وراء منظرها ) إلا وجهاً خالق من حسن وعبوناً جميلة زرقاء تملؤها الرقة والعطف ولوناً باهراً وعنقاً ساحراً . ولم يفتني منها شيء لأول ما نظرتها وأصبحت لحظتها أسيرها موقناً أن ديناً يدعو إليه مثل أولئك الرسل لا بد سائق إلى الجنة .

« وكانت يومئذ في الثامنة والعشرين من عمرها . وكان جمالها من ذلك الجمال الباقي ، لأنه في الخلقة كلها لا في القسمات منفردة . لذلك كان جمالها لا يزال في كل نضوته وكانت ذات روح مملوءة حناناً ونظرات كلها الرقة وابتسامة ملائكية وفم على قياس فمي وشعر نادر نوع جماله . وكانت صغيرة الحجم نوعاً بل قصيرة متقاربة في قوامها من غير تشويه . لكنها يستحيل أن تجد مثل جمال رأسها وصدرها ويديها وذراعيها » .

هذه هي مدام دى فارانس التي نزل عندها روسو لتدله على دين حق وتخرجه عن دين آبائه . وما أقرب ما خلقت بينهما صلة الود والتوافق ، ولولا أن راهباً لاحظ ما هنالك وبحث وراء إقصاء روسو واضطر مدام دى فارانس . محافظة على مركزها ، لتوافقته على هذا الإقصاء لعاش روسو إلى جانبها من ذلك اليوم سعيداً . لكن كأنما قضى عليه أن يغادرها بعد أيام من وصوله ليرجع إليها من جديد

بعد زمن يمضيه في البؤس والنحس فيتمتع بعد ذلك بحب يتعدى حب الخيال  
ويعتز به شيء من الخسة والغدلان .

وترك ( أنسى ) ذاهباً إلى ( تورين ) وسعه ذلك الراهب الذى أوعز إليه  
بسفره وزوجته . غلغلا في سياحتهم بين ربوع السافوا وسويسرا يقطعون أبداع بلاد الله  
وأجندتها مناظر فتعزى ذلك الطريد بعض العزاء . وجعل يدع ناظره بجدار  
الطبيعة الباهر . ولقد كان على ما عرفنا من عشاق الطبيعة ومحبيها والمولعين بها  
إلى حد الهيام . لذلك فلقد ساءه أن يصل تورين على عجل تاركاً وراءه الجمال  
بما عليها من الشجر والزهر محيطه بالبحيرات البديعة الرائعة .

وصل إلى تورين وابتدأ خياله يلعب به من جديد وخيل إليه أن حياة كلها  
السعادة والعظمة تنتظره . على أن جيبه كان قد خلا . فلم يجد وسيلة أمامه إلا أن  
يقدم الخطاب الذى زوده به رئيس دير أنسى إلى رئيس دير تورين وهناك  
أدخل ليتعلم الدين الجديد .

وكان معه فى الدير جماعة من الشبان ظهر له بعد أن عرفهم أنهم أفاقون  
وجدوا فى الاتجار بدينهم مرتزقاً . أما الفتيات اللاتي كن هناك فلم يكن من بينهن  
من يسر مرآها إلا فتاة فى الثامنة عشرة من عمرها أراد روسو أن يأتلف وإياها  
وأن يشغل خياله بها ولكن أمنيته ذهبت سدى وخرجت الفتاة بعد شهرين من مقامه  
بالدير ولم يجرؤ أن يخاطبها إلا فى خياله .

وقضى فى الدير زمناً وهو فى جدال مستمر مع أساتذته الذين كرسوا أنفسهم  
لإدخال الكثرة إلى قلبه وقلب أمثاله . وكان كثيراً ما يحاججهم بما قرأ فى  
أيامه الأولى . أما من معه من الشبان فلم يكن من يأبه له إلا شاباً ابتداء الصداقة معه  
ثم انقلبت الصداقة عند ذلك الشاب إلى حب شهوانى حتى إنه راود روسو سن  
نفسه . إذ أراد أن يفسق به ؟ ! فأذاع روسو الخبر فى الدير . لكن الرهبان هناك  
انتروه بحجة أن الأمر تافه لا يستحق كل هذا الاهتمام بل أخبره أحدهم أنه فى  
صغره مر بالدور الذى أراد صديق روسو أن يخضعه له وأنه لم يجد فى ذلك ألماً .  
وبعد ثمانية أيام من هذه الحادثة ألبس ذلك الغلام الفاجر الثياب البيضاء  
علامة الطهر وصبت عليه كأس الكثرة .

وأراد روسو النجاة من الدير بشكل ما . لكنه لم يفلت إلا بعد شهر من الزمن .

وأقلت حين اعتبر كاثوليكيًّا وأفرج عنه وأعطى عشرين فرنكاً . فخرج في المدينة هائماً يقدر لمستقبله وينتظر حياة طيبة . لكنه كان يخشى نفاذ ما في جيبه فعمد إلى بيت حقير قبلته فيه صاحبه مع جماعة آخرين على أن يدفع ثلاثة صلديات كل ليلة . وفكر هو في احتراف النقش وجعل يبحث عن من يجد عنده عملاً ، ولقد أخفق مرات حين عرض للسؤال عن نفسه . وفيما هو يوماً في جولته مر بحانوت به سيدة جذابة عرض عليها خدمته فأحسنت تلقيه وقدمت إليه ما طلب من معدات العمل . وقبلته قبولاً حسناً .

تلك السيدة هي ( مدام بازيل ) التي شغلت خيال روسو زمن بقائه معها والتي أنسته من كان قبلها من أمثالها . ولقد كان زوج هذه السيدة على سفر وكلف أحد عماله أن يقوم بما تطلبه زوجه من الخدمة . فلما رأى هذا العامل أن روسو ابتداءً يأخذ مكاناً من قلبها عاودته الغيرة وصمم على الوقعة به . أن ألهب خياله بنار الغرام .

وإن روسو ليذكر هذه المسألة في اعترافاته وفي مذكرة وجدت في سكتية نوتشال على طريقة تدن على أن السيدة اهتمت له حقيقة وإن كان هو قد سار معها على طريقته في الحب ؛ طريقة الاستكانة والهدس . قال : تبعها يوماً بينما صعدت إلى غرفتها وجلست إلى جانب النافذة المقابلة للباب وفي يدها بعض النسيج . ولا شك أنها لم تترنى ولم تسمع حركة دخول لقيام ضجة العربات في الطريق . ولقد كان منظرها بديعاً ونمَّ رأسها المنحني بعض الشيء عن بياض عنقها وزانت شعورها المرفوعة برشاقة أزهاراً رضعتها . وعم شكلها كله بهاءً سمح لي الوقت أن أملاً منه ناظري حتى لقد خرجت عن طوقى فركعت عند الباب ومددت نحوها ذراعي في حركة مهتاجة واثقاً كل الثقة أنها لا تستطيع أن ترائي . ولكن مرآة فوق المدفأ خانتني . ولست أدري أى أثر تركته حركتي هذه في نفسها ؛ فإنها لم تنظر إليّ ولم تكلمني بل أرتبني بإشارة من أصبعها الفرش المطروح عند قدميها . ولقد كان يتساوى عندي أن أرعد وأصبح أو أطيّر إلى المكان الذي أشارت إليه . ولكن المدهش الغريب أتى في هذه اللحظة لم أجروء على شيء من هذا فلم أنبس بكلمة ولا استبحت منها لمحة ولا مستهتأ لأعتمد لحظة على ركبتيها بل كنت أخرس لا عن سكتية . ونطق كل شيء في خلا الصوت بمعاني السرور والاضطراب

والشكر والرغبات المتباينة غير المحددة الموضوع المنكشمة خشية أن يصدر منها ما لا يسر . ولم تكن هي الأخرى أكثر منى هدوءاً ولا أقل استياء ، ولم تستطع في اختلاطها حين رأيتى حضرت إثر إشارة صدرت عنها من غير روية ، أن تقبل على ولا أن تبعدى فلم ترفع نظرها عن نسيجها وجاهدت أن تظهر كأن لم تترى عند أقدامها . وحسبت في غفلى أنها شاركنى في اختلاطى بل في رغباتى وإنما منعها خجل كخجل . على أن ذلك لم يسمح لى أن أستعل على ما عندى وقد قدرت أنها ، وهى تزيد عنى في السن خمس سنين أو ستاً ، يجب أن يكون لها هى كل الجرأة . وقلت في نفسى إن سكونها عن استفزاز إقدامى دليل عدم رغبتها فيه . ولست أدرى كيف كان لهذا المنظر الصامت أن ينتهى ولاكم من الزمن . كنت أبقى حيث كنت لولاً أن فوجئنا . حين ذلك قالت : قم فتلك روزينا . فقمتم مسرعاً وأمسكت بيد مدتها إلى وأودعت فوقها قبليتين تقدان أحسست في ثانيتهما أنها كانت تلتصق بشدة يدها على شفتى . . . . . تلك كانت لحظة ما أبت مثلها رقة في حياتى ، وفرصة أضعفها ولم تعد وبقى حبنا الوليد عندها .

ومن ذلك اليوم جعلت مدام بازيل ترقبه في مدارج العمل وتزيد بذلك غيره زميله الذى لم يصبر ، فأبلغ زوجها بعض ما رأى ، فلما كان في بعض الليالى وقد قدمت لأضياف عندها وليمة فاخرة وأجلست روسو وزميلة على مائدة خاصة إذا زوجها يدخل ، وكان أول ما عمل بعد تهادى التحية مع الحاضرين أن سأل عن سبب وجود روسو وأن طرده أشنع الطرد .

ولقد ذكر روسو هذه المسألة في اعترافاته على شكل يدل على قوة ذاكرة في غاية الغرابة فيما يتعلق بالأماكن والحركات قال : « وفي منتصف العشاء سمعنا عربة تقف على الباب وشخصاً يصعد هو المسيو بازيل . وإنى لأراه وكأنه داخل في هذه اللحظة وعليه رداء قاتم الحمرة بأزرار من ذهب كرهتها نفسى وكرهت ذلك اللون من يومئذ ، وكان المسيو بازيل طويلاً وسيم المطلعة حسن اللقيا . فدخل بجلبة وعليه مظهر من يدهش قومه . فعانقته زوجته وأمسكت بيديه وأبدت له عطفاً استقبله من غير أن يردده وسلم على الحاضرين وجلس يتناول الطعام ، وما كادوا يفاتحونه الحديث عن سياحته حتى حانت منه التفاتة لمائدتنا الصغيرة

وسأل بلهجة شديدة عن ذلك الشاب الصغير الجالس إليها . هذا مع أن روسو لم ير المسيو بازيل إلا في ذلك اليوم ولم يره بعدها .

وخرج من عند مدام بازيل ورجع إلى ما كان فيه من تشرد تعينه دريهمات جادت عليه هي بها . ثم رجع إلى الوكر الذى كان قد نزل فيه يدفع عن الليلة ثلاثة صلديات وظل فيه حتى دلته صاحبتة على الخدمة عند الكونتس دى فرسليس . وكانت هذه سيدة عاقلة مفكرة متعلمة محبة للأدب ولكنها مريضة لا تستطيع الكتابة بيدها . فآخذت روسو لتملى عليه ما شاءت من خطاباتها الرقيقة البديعة . فخشى سائر الخدم ما سيكون من نتيجة هذا المركز الجديد فى إعلاء شأن زميلهم وسعوا حتى جعلوا الطبيب ينصح للكونتس بالعدول عن التفكير والكتابة . وبذلك أصبح روسو عندها نسياً منسياً .

« ولم تُسمعى مدام فرسليس يوماً كلمة حنان أو عطف أو رحمة ، بل كانت تسألنى ببرود فأجيبها بتحفظ . وكانت إجاباتى لها مملوءة حياء حتى عدتها وضيفة وأنفتها ولم تسألنى بعد ذلك عن شىء ولم تخاطبني إلا فيما يخص خدمتى ، وأصبح تقديرها لى لا بما أستحق ولكن على نسبة المركز الذى وضعتنى فيه فلم تعتبرنى إلا خادماً ومنعنى أن أكون شيئاً آخر . . ومن ذلك اليوم تولدت عندى الكراهية لنظام ينتج هذه المناصب » .

وتوفيت مدام فرسليس وروسو فى خدمة بيتها . وبالرغم من أنها أوصت لخدمها فلم تترك له هو شيئاً . فأعطاه ابن أختها الكونت دلارك ثلاثين ديناراً وترك له الملابس التى عليه والتي أراد رئيس الخدم أن ينزعها منه .

وفيا هم فى جلبه الوفاة وما يعقبا فقدت مدموازيل بونتال ابنة ربة البيت شريطاً من شرائط الرأس وردى اللون ببعض الفضة وبالبحث عنه وجد عند جان جاك : « ولقد كانت أشياء كثيرة أعلى سعراً من هذا الشريط تحت يدي . لكنه وحده الذى استغوانى فسرقته . فلما سئلت من أين أخذته اختلط على الأمر وتأتأت ثم قلت فى خجل إن ( ماريون ) هى التى أعطتنى إياه » وماريون هذه هى طاهية مدام فرسليس . وكانت ذات جمال ونضرة لون ورقة ولطف لا مثيل لها « ونودى بها إلى جمعية كان من بين من حضرها الكونت دلارك وأظهر لها الشريط وسئلت عنه فاتهمتها بتبجح فبهتت وصمتت ثم أرسلت إلى نظرة كانت كافية

لتصعق الشياطين . لكن قلبي القاسى تحجر . ففتت عن نفسها التهمة بثبات ولكن من غير قوة وطلبت إلى أن أراجع نفسى فلا أدنس فتاة بريئة لم ترتكب فى حياتها نكراً . لكنى ثبت على إنكارى بتبجح جهنمى وأعدت أنها هى التى أعطتني الشريط . فبكت الفتاة المسكينة واقتصرت أن وجهت إلى هذه الكلمات : ( إيه روسو . لقد اعتقدتلك ذا خلق حسن . وهأنذا تقذف بى إلى التعس وما أود وأيم الله أن أكون مكانك » .

ودافعت المسكينة عن نفسها ولكن ثبات روسو على كذبه بقحة وقوة أدخل الشك إلى نفس الكونت دلارك أى الاثنين جنى . فطردهما جميعاً . .

« وإنى أجهل ما آل إليه أمر فريسة سبتى ولكن لا شىء يدل على أنها وجدت بعد ذلك مكاناً تخدم فيه . فقد حملت وصمة قاسية أساءت لشرفها من كل الوجوه . وإذا لم تكن هاته السرقة إلا سرقة بسيطة فهى على كل حال سرقة ، وسرقة أتتها لتستغوى بها شاباً ! ! ومن يدرى أين ذهب بها وهى فى تلك السن خذلان الطهر المهان » .

هذه هى الجريمة التى أقلقت نفس روسو طول حياته والتى لم يفض بها لإنسان إلا بعد أن نشرتها اعترافاته عقب موته . وهذه هى الجريمة التى دفعه إليها خياله المتوقد وحساسيته الشديدة وغروره الكبير . هاته الصفات التى امتاز بها والتى دفعته فى أحيان كثيرة إلى عمل الخير . وإنك لتقرأ تبريره لنفسه عن هاته الجريمة فتحس بهذه الصفات متجلية واضحة :

« على أن حب الشر لم يكن أبعد منى يوماً كما كان فى تلك اللحظة القاسية . وغريب أن تكون صداقتى لهاته الفتاة التعسة هى التى دفعتنى لانهامى إياها حيث كانت حاضرة لذهنى فدفعت التهمة عن نفسى بأن ألقيتها على أول من عرض نفسه واتهمتها بأنها عملت ما أردت أن أعمله وبأنها أعطتني الشريط لأننى كنت أقصد إعطائه إياها . فلما رأيته بعد ذلك تمزق قلبي . لكن وجود ذلك الجمع منع على سبيل التوبة . وما كان ذلك منى خشية العقاب وإنما خشيت الخجل . خشيته أكثر من الموت ومن الإجرام ومن كل شىء فى العالم . لقد كنت أود لو ابلهتني الأرض . ولكن الخجل تغلب على كل شىء ودفعني إلى التبجح .

وكلما ازدادت إجراماً ازدادت تمنعاً عن الاعتراف بالجرمة خشية ظهورى أمام الناس كسارق سبب كاذب .

وإن الإنسان ليحس في هذا التبرير من رُسو لعمله بمعارضته قيمة هذا العمل بحقيقة مقصده . ولكأنه يريد أن يقول إن عملي ليس نكراً لأن طبيعتي تأبى الشر وتنفى كل سوء قصد .

وخرج من بيت فرسليس ورجع إلى منزله الحقير فأقام به أسابيع عدة دفعته فيها البطالة ليفكر في الشهوات فجعل يتجول في أنحاء تورين رجاء الوقوع على ما يمتعتها . بل لقد بلغ من تحكّمها فيه أن دفعته إلى شبه جنون كان يذهب معه إلى أماكن قصية ينتظر فيها مرور النسوة فيحملق فيهن ويأتى أمامهن أفعالا منكّرة . واسترسل في ذلك وجعل يذهب إلى عين ماء يتردد إليها الفتيات ليستقين ويأخذن الماء منها . ووجد عندها كهفاً يتدرك إليه سلم اتخذته درءاً يلجأ إليه إذا أصابته داهية من هاتيك الفتيات وما كان يحسب أن سيصيبه أضعاف ما يتوقع . ففياً هو يغازل إحداهن على طريقته الجنونية صاحت في وجهه فهول إلى ملجئه فتبعه رجل معه سيف وتبعه العجائز يتأبطن أيدي المكناس . ولما أدركوه توسل إلى الرجل وادعى أنه لابن أسرة كبيرة وأنه فر من أهله الذين أرادوا حبسه لجنة قامت به . فتركه الرجل وأنبجاه من العجائز ومكانسهن .

وكان من أثر هذه الحادثة أن ردت إليه بعض هدوئه وعقله فاستعاد في ذاكرته من عرف أيام كان في خدمة مدام دى فرسليس وجعل يتردد على أحدهم ، وهو قس من السافوا اسمه (جيم) ، وكان رجلاً متعقلاً بصيراً . فشرح لجان جاك مسائل كثيرة مما يتعلق بالعقيدة ، وعرض عليه كذلك نظريات عدة كان أعلقها بذهنه أن لو استطاع كل أن يقرأ ما في قلوب الآخرين لكان طلاب الهبوط أكثر من طلاب الرفعة .

وفي هذه الأثناء طلبه الكونت دلارك وعرض عليه أن يخدم في بيت الكونت (جوفون) فقبل ذلك وإن ساءه في نفسه أن يكون دائماً خادماً . ودخل عند الكونت فأحسن استقباله وقدمه لابنه ولزوجة ابنة فسر من ذلك الابتداء وحسب أن سيكون عما قريب أرقى مما دخل . وأظهر لذلك اهتماماً فائقاً في عمله وبقى بمنزل (الجوفون) مكرماً محبوباً لا يعهد إليه من أمور الخدم إلا خدمة المائدة .

وما أسرع ما تعلق خياله بابنة البيت مدموازل (دبريل) كعادته في الإسراع في النجب ، وكعادته لم يلق معها أى نجاح .

وبعد زمن ابتدأت كفاياته تظهر فيه ، أراد رجال الدار إعداده ليتبعهم في مراكز سياسية خطيرة واتخذه ابن الكونت جوفون سكرتيراً وخادماً وجعل يعلمه اللاتينية وأتقن معه الطليانية . لكن هذا الشاب كان وكأنه محكوم عليه أن يقضى شببته بل حياته متشرداً . فإنه بعد أن نال الحظوة في القصر وبعد أن وجد من يثقف له عقله ومن يرتب له المعلومات المشتتة التي كان حصلها من قراءاته ويزيد له فيها ويكملها صادف صديقاً له قديماً من أهل جنيف ، شاباً من سنه يدعى باكل . وما أسرع ما ازدادت الألفة بينهما وبلغت حد التعلق وأصبحا لا يفترقان . فيجىء « باكل » عند روسو كل يوم في القصر ويعطله عن عمله . فلما استحس أهل القصر ذلك حرموا على باكل دخوله فجعل روسو يخرج إليه . فلامه ابن الكونت جوفون ومن معه فلم يرجع . وأخيراً أعنى من الخدمة وما كان أكثره بذلك سروراً . فقد رتب مع باكل أن يرجع إلى سويسرا راجلاً يقطع الطريق الذى جاء منها ممتعاً بكامل الحرية .

ورجعا معاً يقطعان طريقاً زانته الطبيعة بأبداع ما أهدف به بقعة في العالم ، فيمتع روسو نفسه من ذلك بكل ما تطلبه حواسه وإحساساته المتوقدة . وبقياً نرجان كلما جنهما الليل على القرى المنثورة بين الجبال والخضرة فينالان من أهلها حسن الاستقبال وكرم الرفد . وكذلك ظلّا حتى وصلا إلى (شمبرى) فكر روسو في التخلص من صديقه لاقترابه من (أنسى) موضع إقامة مدام دى فارتس . كما ابتداء يفكر فيما سيكون لعودته عليها من الأثر . فلما استحس صديقه ذلك منه ووصلا إلى (أنسى) قبله قبلة الوداع واقتربا فراق الأبد .

وهنا تنهى الحياة المتشردة المملوءة بالصغائر ويفتح أمام روسو باب جديد من أبواب الحياة . هنا يرجع لتلقطه مدام دى فارتس من تشرده وخدمته فتحفظ به زمناً غير قصير لا يغادرها فيه إلا قليلاً وليتركها عند آخره فيذهب إلى باريس حيث تنتظره الحياة التي تخذل اسمه .

## ٢

ترك روسو صديقه عندما وصل إلى أنسى . ودخل البلد وقلبه مشته وباله مشتغل بحسب للقياس من لم تشغله عنها مدام بازيل ولا مدموازيل دريل ولا فتيات البئر ، والتي لم يفتأ طول مدة غيابه يخاطبها وتكاتبه . فلما رأته ألفت عليه نظرة عطف واشتياق ردت إلى باله الهدوء وإلى قلبه الطمأنينة . وهنا بدأ روسو حياة سعيدة ملأى بالإحساسات الرقيقة المتبادلة .

وتبدلت بينهما محبة بلغت حد الهيام وأعدت هي له في بيتها غرفة مطلة على حدائق وأعشاب تنتهي بالمزارع الواسعة ، ولم يكن معهما بالمنزل سوى خادم يدعى (آنيه) وخادمة تسمى (مرسريه) كانا يقومان بنظام المنزل وجميع شئونه . لذلك ، وبالرغم من أن الحياة الجديدة لم يكن فيها من السعة مثما كان في الحياة التي مر بها روسو في تورين . ولهذا الإحساس المتبادل بينه وبين ربة البيت . فقد أحس في حياته الجديدة بنعيم لم يكن يخطر له من قبل ببال .

وتزايد الحب بينهما حتى صار يشغل بال روسو أيما شغل . على أن ميل مدام دفارانس له لم يكن ذلك العطف المتبادل بين رجل وامرأة ، بل كان عطف سيدة على شاب يستحق الحنان . ولهذا فلقد كانت تدعوه (صغيري) ويدعوها (أمي) ولهذا أيضاً لم تمتنع هي عن الاستمرار فيما كانت فيه من قبل من تبادل الصلات الجنسية مع أشخاص غير روسو .

وما كان هو ليفكر في مثل هذه الصلة أول الأمر . بل لقد بقى معها كما كان مع سواها خيالياً عذرياً ذاهباً بتصوراته في سحب الآمال والتي . يرى في كل ما أحاط بها موضع سعادة ويرى في قربها نعمة وهناءة .

وإلى القارئ صحيفة من اعترافاته غاية في الإبداع عن ذلك الوقت من أيام حياته :

« يموت الهوى مني إذا ما لقيتها

ويحيا إذا فارقتها فيعود

« وكثيراً ما دفعتني حاجة القربى منها إلى مواقف حنان تستدر مدامعى .  
وإني لأذكر دائماً يوم عيد ذهبْتُ فيه لأداء صلوات الصبح وخرجتُ أنا  
لأنتزه بعيداً عن المدينة مملوء القلب من صورتها ومن الأمل القوي في قضاء  
أيامى . على أن تعذر ذلك يومئذ كان واضحاً أمامى وكنت شاعراً تمام الشعور  
أن سعادة ذلك مبلغ متاعى بها هى لابد قصيرة المدى . ولقد أرسل هذا الإحساس  
إلى أحلامى شيئاً من الحزن وإن لم يبلغ ذلك الحزن الكآبة ولا هو حرم من أمل  
يخفف وقعه . واستثارت عندى دقات الأجراس وأغاريد الطير وجمال النهار  
ورقة المنظر والمنازل المشتتة بين الأشجار حيث تخيلت مستقرى وإياها ، هزة  
رقيقة حية حزينة مؤثرة تصورتها نقلتني إلى ذلك المستقر البديع في تلك الأوقات  
السعيدة يتذوقها قلبي على ما يحب من غير تفكير في الشهوات ما دام قد حصل  
من الهناء على كل ما يريد . »

وكذلك راجع روسو السلام والسكينة بعد إذ فارقه طويلاً ورجع إلى  
الاستقرار والهدوء بعد أن قضى زمناً متشرداً أو في مراكز وضيفة وجعل يقرأ من  
جديد مالتاً بالقراءة كل أوقات فراغه مستعيناً في قراءته بصاحبه التي قرأت كثيراً  
والتي كانت بذلك ذات عقل وحسن اختيار .

وفيما هو يتذوق هذه السعادة زار مدام ديفارانس ذو قرابة لها هو المسيو  
(دوبون) وكان رجلاً راجح العقل كثير العمل فقامت بإيجاد التعارف بينه  
وبين روسو وسألته عما يصلح جان جاك له فبعد إذ رآه وكلمه ووقف على ما تبين  
له منه ، حكم بأنه لا يصلح لشيء ، فهو ضيق العقل أكثر ما يمكن أن يصل إليه  
مع التساهل في الحكم أن يكون قساً في قرية .

ولم يكن المسيو دوبون وحده هو الذى حكم على روسو هذا الحكم بل لقد  
وجهه إليه كثير غيره . وإنا ننقل للقارئ تفسير روسو لهذه المسألة وسيرى منها مركز  
جان جاك العقلى وقوته التصورية وما كان من أثرهما على حياته بعد ذلك ككاتب  
ومفكر . قال :

« يجتمع فيَّ شيان متضادان أو يكادان لا أستطيع أن أتصور اجتماعهما .  
إحساس شديد وعواطف قوية وشهوات متحكمة يقابلها أفكار بطيئة التبين لا تظهر  
إلا بعد زمن فكأنما فيَّ قلب رجل وعقل رجل آخر . فأما العواطف فتسرعُ إلىَّ

كالبرق تملأ كل نفسى ثم لا تضىء شيئاً أمامى بل تغشائى وتتركى محسباً بكل شىء ، غير مبصر شيئاً ، ثم أبى متبلداً يعوزنى الهدوء المطلق كما أفكر .

« وهذا البطء فى التفكير والتوقد فى الإحساس يلازمى فى وحدتى وعملى كما يلازمى فى محادثائى واجتماعائى . فلا ترتب الأفكار فى ذهنى إلا بأقصى الصعوبة فهى تدور فيه أولاً ثم تتقارب حتى تستقرنى وتستدعى اهتزازات عصبية عندى . وفى هذه الأثناء لا أبصر شيئاً ولا أستطيع أن أكتب كلمة واحدة . بل يجب أن أترث وأنتظر حتى تهدأ هذه الحركة فى مخى ويأخذ كل شىء فيه مكانه ببطء وبعد لأى شديد . »

وكان روسو لهذه الصفة عنده لا يحسن الكلام فى أى مجتمع يوجد فيه . ولا شك فى أن ذلك من الأشياء التى جعلته مؤثراً للوحدة مبغضاً للاجتماع محبباً للحياة وسط الطبيعة الصامتة كما أن توقد إحساسه كان يسمح له بالتمتع بجمال الطبيعة أكبر متاع .

ولكأنما صادقت مدام دفارانس على رأى مسيو دوبون فرأت أن يتعلم روسو ليكون قساً فى مستقبله . وأرسلت به إلى دير فى البلد تحت حماية راهب اسمه المسيو (جرو) طيب القلب حسن العشرة فأسلمه هذا الراهب إلى قسيس غليظ القلب سمح الطبع يعلمه : فشم روسو هذا المعلم . حينذاك نقله حاميه تحت إمرة معلم آخر هو المسيو (جاتيه) وكان شاباً رزيناً عاقلاً ودوداً . فعنى بروسو خير عناية وجعل يدرس له قدر جهده . على أن ذلك لم ينتج كثيراً وصادقت نبوءة (دوبون) وحكم بأن روسو لا يصلح ليلبس رداء الرهبنة .

على أن صداقة المسيو (جاتيه) له أفادته فى معلوماته ، كما أفادته من قبل ذلك محادثاته مع المسيو (جيم) . وكان لهما من الأثر فى حياته بعد ذلك أن اتخذهما مثلاً لبطله فى ( الاعتراف بالإيمان لقس من السافوا ) . وكان معه حين مقامه بالدير كتاب موسيقى أخذه معه يوم ذهابه إليه واجتهد أن يستمر ليتعلم فيه ما كانت مدام دفارانس قد بدأت تعلمه إياه . فلم يتقدم إلا قليلاً برغم إدمانه قراءته . فلما خرج من الدير ورأت (أمه) هذا الميل عنده عهدت به لرئيس موسيقى كتدرائية البلد المدعو مسيو (لمتر) . ومع أنه بقى زمناً معه ، فلم يستفد فائدة تذكر وكأنما لم يقدر له أن يتعلم على معلم طول حياته .

وبينما كان في صحبة المسيو لمتر وصل إلى (أنسى) شاب سمه (فتنور) ادعى معرفة الموسيقى وأظهر عند التجربة كفاية ممدوحة . وما أسرع ما تعلق روسو به عندما رآه . تعلق به تعلقه (بياكل) وبغيره من قبل . وكان فتنور متعلما ذكياً له في المجون . وازداد تعلقه به حتى أخذ معه يوماً إلى مدام دفارانس فلما رآته وحادثها رآته شخصاً فاسداً فحزمت على روسو أن يجيء به لمتزها مرة أخرى ونصحت إليه ألا يصاحبه .

وفي هذه الأثناء قام سوء تفاهم بين مسيو (لمتر) ورؤساء الكنتدرائية أساسه ما في نفوس هؤلاء الرؤساء من الكبرياء والعظمة واعتبارهم من ليس من رجال الدين في مركز ضعة إلى جانبهم . فتمسك (لمتر) على الحرب حتى يتركهم في حيص بيص خصوصاً وقد كان عيد الفصح مقرباً يومئذ . وفتح مدام دفارانس عزمه ولما يشئت من إمكان صده عنه رأت أن تعينه بمن ينقل معه متاعه فعهدت لروسو بهذه المهمة وخرج مع أستاذة لبليل ، واجتازوا سويسرا إلى فرنسا حيث كان (لمتر) ذاهباً إلى باريس ببلده ومسقط رأسه . فلما وصل إلى ليون عاودت (لمتر) نوبة عصبية من النوبات التي تعاوده لإدمانه شرب الخمر نكها عاودته هذه المرة بقوة فأرعى فمه واحمرت عيناه وسقط إلى الأرض لا يعي . فصاح روسو حتى إذا اجتمع الناس لم يكن منه إلا أن تركهم وترك صاحبه وعرج لا يلبى على شيء قاصداً تركه وشأنه .

وهذه هي الجريمة الثانية بعد جريمة اتهام (ماريون) كذباً بسرقة شريف الرأس وإن تكن أقل منها شناعة وفظاعة . على أنها استدعت من روسو أسما واستلزمت منه استدامة التوبة عنها . وإنما في ذاتها . مضافة إلى هذه الميول الغريبة التي سبق مرورها بالقارئ لتدل على حساسية مريضة وعقل غير منتظم . والعجيب أن هذه الميول وتلك الحساسية لزم روسو طول حياته وكانت سبب عظيمته ومصدر فلسفته .

وما لبث أن ترك مسيو لمتر حتى فكر في الرجوع إلى (أنسى) واتخذ طريقه تَوَّ إليها ، فلما بلغها وذهب إلى المنزل لم يجد مدام دفارانس وعلم أنها سافرت إلى باريس لمهمة لم يتح له أن يقف عليها . فهمه ذلك واستثار شجنه وزاد من أسفه لتركه مسيو (لمتر) على نحو ما فعل . غير أنه لم يبق على ذلك طويلاً وسرعان ما رجع

فبحث عن صديقه فتتور الذي أحسن لقاءه وقبل أن يبقى جان جاك مقبياً معه .  
وجعلاً يقضيان معظم النهار مفترقين ؛ فتتور في جمعيات (أنسى) ومع سيداتها  
اللاتى بدان يتعشقته وروسو في جولاته وسط الطبيعة وأحلامه التى لا تنهى .

في هذه الأيام عرف مدموازل جالى ومدموازل جرافريد . وإنى لأحبس قلمنى  
الآن لأترك روسو يقص على القارئ ملقاه بهما وتوطيد معرفته إياهما في الحكاية  
الآتية التى بلغت أقصى حدود الإبداع في الكتابة فلا يكاد يوجد فرنسى لا  
يعرفها قل :

ابتدى لى الفجر يوماً بديع الجمال فارتديت ملابسى على عجل وخرجت  
مسرعاً أريد المزارع لأرى مطلع الشمس . فذقت تلك اللذة في كل بهائها :  
نبست الأرض زخرفها وازينت بالزهر والعشب وزادتها البلابل زخرفاً وبهجة .  
والطير كلها تنادى تودع الخريف وتحبى مولد يوم صيف جميل . يوم من تلك  
الأيام البديعة التى لا يراها الإنسان في سنى والتى لم تر أبداً في هذه الأرض المكتسبة  
لتى سكنها اليوم .

« وابتعدت، عن المدينة على غير شعور منى وتزايد الحر فالتجأت إلى ظل  
أشجار تحيط غديراً . ثم سمعت وقع حوافر خيل فأصوات بنيات تبين عليهن  
الحيرة وإن لم يمنعهن ذلك من الضحك عن قلب طيب . فالتفت فنادينى باسمى  
فاقتربت فإذا بى أرى طفلتين من معارفى هما مدموازل جرافريد ومدموازيل جالى  
وكانتا لم تستطعا إكراه جواديهما على عبور العدير لقله دربهما في الركوب .

« وكانت مدموازل جرافريد طفلة من (برن) غاية في الرقة دفعها حنون  
سنى فتركت بلدها وأقامت مع مدموازل جالى التى أخذت على أمها عهداً أن  
تبقى معها هذه الصديقة الرقيقة حتى تستقر على حان .

« أما مدموازيل جالى فكانت أصغر من صاحبها سناً وأكثر جمالا ويشوب  
هذا الجمال إبداع ودقة . وكانت صغيرة الحجم تامة التكوين في وقت معا .  
أى في أجمل اللحظات التى تمر بها كل فتاة . وكان بينهما جميع حب حلوى  
ضمن حسن علاقتهما بقاء ما لم يعكر صفوه محب متعشق .

« وكانتا ذاهبتين إلى تون Thones حيث يقوم قصر قديم مملوك لمدموازل  
جالى . فاستعاننا بى كى أستعدى الخيل العدير لعدم استطاعتهما ذلك وحدهما .

فأردت أن أهب الخيل بالسوط لكنهما خافتا علىّ الرفس وعلى أنفسهما السقوط . فلجأت إلى وسيلة أخرى فأمسكت بلجام حصان مدموازل جالى وشددته ورائي وخضت الغدير حتى بلغ الماء منتصف ساقى . وتبعنا الحصان الآخر من غير مشقة . فلما فرغنا من ذلك أردت أن أحبيهما وأذهب . فتسارّتا ثم وجهت مدموازل جرافريد الكلام إلىّ قائلة : كلا كلا لن تفلت منا هكذا . لقد ابتلت فى خدمتنا فيجب عدلا أن نأخذ على مسؤوليتنا إعادتك إلى سابق حالك . يجب يا صاح أن نجىء معنا . إنا نستوقفك سجيناً ، فلق قلبى وحولت نظرتى إلى مدموازل جالى فأضافت ضاحكة مما أنا فيه من الاختلاط : نعم نعم أسير حرب ! امتط الجواد وراءها فإننا مسئولتان عنك « فقلت : لكن يا أنسة لم أشرف من قبل بمعرفة السيدة والدتك فماذا عساها تقول حين ترائى : فأجابت عنها مدموازل جرافريد : أمها ليست فى تون ونحن وحدنا وسنرجع الليلة وترجع معنا .

« ليست الكهرباء أسرع أثراً من هذه الكلمات على نفسى . وقد اهتر قلبى سروراً ساعة امتطيت جواد مدموازل جرافريد . وطوقها بذراعى فازداد قلبى اهتزازاً حتى شعرت هى به . ولقد أخبرتنى أن قلبها هى الأخرى يهتر خيفة أن تقع .

« ودفعنى السرور بالزهوة وحديث الطفلتين لأتحدث أنا كذلك . ولقد قضينا حتى المساء لا نسكت لحظة . وأمتعائى بالطمأنينة فى لسانى يتكلم بمقدار ما تنطق عينائى وإن لم يقل ما إليه ترميان .

« ولما وصلنا إلى تون وزال ما بردائى من بلل طعمنا غداءنا ثم قمنا لتحضير أمر العشاء . . وتعشينا وجلست بينهما فأى عشاء . ألا ما ألد ذكراه . ومضى اليوم وقد لعبنا به على ما شئنا وبكل وقار . فلم تصدر كلمة مبهمه ولا عبارة سيئة » .

واقترقوا على موعد بينهم . ولكن ما أقل ما تصدق مثل هذه المواعيد . فرجع جان جاك إلى حياته مع فتور يقضى النهار هائماً يتمتع بالطبيعة وجمالها ويؤوب الليل إلى بيت صاحبه يقضيه سعيداً مرتاح الفكر والخاطر .

وطالت غيبة مدام دفارانس ففكرت خادمتها (مرسيريه) فى الرجوع إلى بلدها (فريبور) وسألت جان جاك أن يصحبها . وذهبا جميعاً ومرا فى

طريقهما ( بنين ) حيث أبوه فرج عليه وترك عنده بعض متاعه وودعه وذهب مع الخادمة حتى دار أهلها . وبعد يومين أقامهما عندها تركها إلى لوزان ووصلها خالي الجيب لا يملك فلساً فأكل ونام عند رجل أنف أن يأخذ منه في الصباح رهناً عما استحق عليه .

لكن تسول شاب قوى حال لا يمكن أن تدوم . فذهب إلى نزل وادعى عند صاحبه أنه مغن ماهر وأن فقراً يقعد به عن كل شيء . ولقد مر بالقارئ أنه أخفق في تعلم الموسيقى وفي الغناء . لكنه لم يجد غيرها مرتقياً . ووعده صاحب النزل خيراً ونشر عنه ورتب معه ليلة طرب ليغنى فيها وحصل له على بعض تلاميذ ( كانوا بلداء بمقدار ما كان جاهلاً ) . ولما ذهب إلى هذه الليلة وغنى لم يكن من السامعين إلا كل ساخط عليه مشمئز منه . وأورثته الخيبة ألماً وحرزاً لم يكن له عنهما من عزاء إلا بعض مكاتبات كانت ترد إليه من صاحبيته جالي وجرافريد فتحمل إليه ربحهما وتعزیه بعض الشيء عن همه .

صرف هذا الفشل عنه تلاميذه وهدده بفقر أكثر من عدمه الأول . فعول على ترك لوزان وعلى أن يمر ببلد مدام دفارانس ، وتوجه إلى ( فيثي ) يجمع الناظر منها بذلك الجمال الساحر الذي تمتاز به . وأقام بها يومين أحبا فيها حباً استرجعه إليها مرات في حياته وجعله يتخذ منها فيما بعد مقر أبطال روايته الكبرى ( هلويز الجديدة ) .

وأخيراً ساقه طالعه وألقت به عصا التسيار إلى نوشاتل ، وهو يدعى دائماً أنه موسيقى ماهر . لكنه كان يعلم علم اليقين أن الفشل ينتظره لا محالة . لذلك ما لبث أن رأى قسيساً إيطالياً لا يتكلم الفرنسية حتى تقرب منه واتصل به كترجم . وكان القسيس داعياً يطوف أنحاء أوروبا يجمع الصدقات من كبار رجال الحكومات ليردها على بيت المقدس . ولقد سر روسو أكبر السرور أن علم أنه يرمى من هذه السياحات المترامية ليصل أخيراً إلى مهبط الوحي ومسقط رأس السيد المسيح . لكن أحلامه لم تتحقق فإنه بعد أن مر مع القسيس ( بفريبور ) و( برن ) وصلا إلى ( سولير ) حيث كان المركز ( دنباك ) قنصلاً لفرنسا . فلما استقبلهما ورأى روسو وعرف منه حقيقة حاله منعه من الاستمرار مع صاحبه وحجزه عنده ولم يعطه الفرصة حتى ولا ليودعه .

وبعد زمن قضاة في بيت القنصل صمم أهل البيت على إرساله لباريس  
سكرتيراً لأحد الشبان المشتغلين في الوظائف العسكرية من أقاربهم . وأعطى  
ما يلزمه للسفر وراح يقطع الطريق بين بدائع الطبيعة وغرائب أحلامه حتى وصل  
باريس وكانت في خياله مدينة بابلونية ليس فيها إلا شوارع فخمة وإلا قصور  
من المرمر والذهب . فلما تبدت له أطرافها وبها منازل صغيرة سوداء تمر من أمامها  
ضربات ضيقة قدرة يسير فيها المتسولون والباعة اضمحلت أحلامه وتلاشت أوهامه  
وداخله إحساس اشمئزاز بقي عنده بعد ذلك برغم ما ظهر له من إبداع فيها وجمال .  
وأحسن من قدم نفسه إليهم استقباله ، إلا جماعة من كان يريد الخدمة  
عندهم . فاعتراه هم كبير . ولولا أن سيدة اهتمت له وبحثت وإياه عن مدام  
دفارانس وعرفت أنها سافرت لكان أسوأ حالاً وأتمس مصيراً . وما كاد يعلم بسفر  
( أمه ) حتى غادر باريس مسروراً بفراقها ورجع قاصداً السافوا ليبحث عنها .  
فلما مر بليون قصد بيت مدموازل دشاتليه إحدى صاحبات مدام دفارانس أملاً أن  
يقف منها على خبر صديقه . فعلم أنها غادرت ليون من زمن . لكن مدموازل دشاتليه  
لم تقف عليه بالبحث عن محل وجود صاحبها .

كان روسو يومئذ قد وصل من المقرر إلى قراراته : وأبى عليه غروره أن يظهر ذلك  
لمضيفته فترك بيتها وانطلق هائماً وسط المدينة يبيت مرة في العراء ويعرض نفسه أخرى  
للسبب بمنزل قسيس يراوده عن نفسه قصد أن يفسق به . وفيما هو سائر يغنى بعد  
ليلة قضاها تحت السماء قابله الميسو روليشون وعلم منه أنه يقدر على نقل الموسيقى .  
فاستخدمه عنده زمناً فلما فرغ من العمل رجع ومعه ما يقم صلبه وبقي مع مدموازيل  
دوشاتليه أياماً يستفيد من ملاحظاتها حتى إذا جاء الخبر أن مدام دفارانس مقيمة في  
شمبرى ودع مضيفته ومضى .

وصل ( شمبرى ) فوجد أمه مقيمة في بيت أقل فخامة بكثير من بيتها في  
( أنسى ) . ووجدها وقد أعدت له غرفة من غرفه . وكان ( كلودانيه ) لا يزال  
متصلاً بـ مدام دفارانس اتصال خدمة واتصال مخاللة ومزاولة . فلما علم روسو  
بذلك لم يمتعض ولم يتضايق بل تزايد حبه لآنيه وعطفه عليه . قال : « وكذلك  
كان من الأدنة على سمو أخلاقه هاته المرأة الرقيقة أن يرتبط جميع محيها برابطة المحبة  
فيما بينهما . وأن تخضع العيرة ويخضع التنافس إلى عاطفة اليد التي توحى هي :

لهم جميعاً فلا يريد أحد منهم بالآخر شراً . هذا هو حكم روسو وهو حكم ينطق بعدم اعتداده بالفضائل المقررة .

ووجدت هي له في تعداد الأنفس وقتئذ وظيفة اشتغل بأدائها ستين تعلم في خلاهما الحساب والرسم كما انكب في أخريات أيامهما على القراءة انكباباً شديداً . ثم ترك التعداد وانقطع للموسيقى وكان قد بلغ منها بعض المبلغ لكثرة ما زاووا أيام كان لها معلماً . وكثر لذلك تلاميذه وانقطع لهم وكان من بينهم فتيات غاية في الجمال ومن بين أمهات هاته الفتيات من افتتن بشكل جان جاك وأردن منه ما لم يكن يفهم إلى ذلك اليوم من صلات الجنسين . فلما رآته مدام دفارانس على هاربة الوقوع فيما تدفعه إليه سنة من الشهوات لم تجد إلا طريقاً واحداً ينجيه من هذا الشر . وذلك بأن تهب له نفسها . وقبل هو هذه الهبة فدنس حبه الطاهر وأصبح شريكاً لكرد آبيه من غير ضمير ولا ملال .

والمدهش أنه يبرر في اعترافاته عدل مدام دفارانس بقوله إنها إنما كانت تريد به الخير فيما فعلت . ذلك لأنها لم تكن تهتم بالعلاقة الشهوية أو تعيرها أية هدية . فلم يكن في عملها ما يمكن اعتباره خطيئة من جانبها ولا كان في مخاللة من تسميه ابنها ما يمكن أن يمس أخلاقها . واعتذار روسو عن معشوقته الكريمة على هذه الطريقة لا يقل عن حكمه السابق دلالة وبيانا .

وبعد زمن قضاه شريكاً لكلود آبيه في مضاجعة مدام دفارانس توفي كلود مأسوفا عليه منهما جميعاً وأصبح روسو سيد البيت والمكلف بتصرف أمورهم . وإنه ليعزو ما عرف عنه من بخل طول حياته إلى ذلك الوقت حين اضطره النظر في شؤون ( أمه ) للتدبير والحذر . وأصبح مركزه كرفيق لمدام دفارانس معقولا بعض الشيء . مهما ناله من اللوم .

ولطول ما اشتغل بالموسيقى راق له أن يؤلف فيها . لكنه لم يكن من العلم بها بحيث يستطيع الوصول لذلك وحده . ولم يجد في شمبرى ولا ما جاورها من يعلمه إياها . فذكر أن صديقه فتور تعلم على أستاذ في ( بزانون ) اسمه ( بلانشار ) فصمم على الذهاب إليه . ولم تقف مدام دفارانس دون إرادته بل ساعدته عالياً وأعدت له عدته فلما مر في طريقه ( بنين ) عهد إلى آبيه أن يرسل له متاعه لكن متاعه صودر على حدود فرنسا بحجة أن عمال الجمرك وجدوا بين أوزانه

ورقة فيها ما يطعن على الكتلثة ونحشوا نشرها في البلاد فاضطر روسو بعد مقابله المسيو بلانشار أن يرجع على عقبه إلى شمبى ولم يكسب من سفرته شيئاً . . .

أقام في شمبى يتمتع وحده برفيقتة ويعلم الموسيقى ممتعاً بالسكون الأعم والراحة الكاملة . وأتيح له يومئذ تلميذ شغف به هو المسيو ( دكوزيه ) . وكان شاباً ذكياً متعلماً مطلعاً ولا يأخذ ميله للموسيقى الكثير من وقت جان جاك . بل كان يقضى معظم حصته في الحديث عما ظهر من الكتب وبالأخص من كتب الأدب . ولقد قرأ مع روسو أكثر خطابات فولتير مع فردينان البرنس البروسى . وكان سبباً في تعلقه بقراءة ما يظهر من كتب الأدب . فلما ظهرت ( خطابات فولتير الفلسفية ) جاء عليها وتعلق بها أى تعلق .

وبينا هو في متاعه فاجأته حادثة كانت مقدمة لحادثة أخرى زادت إلى سابق أمراضه . ذلك أنه كان يوماً يحضر دواء في زجاجة فأصاب عينيه بعض ما فيها فاعتل بهما ستة أسابيع كان لا يبصر في أثنائها شيئاً . وما كاد يشفى من هذا المرض حتى أصابه مرض آخر ألزمه الفراش وأتى على قواه . فعنيت به مدام دفارانس خير عناية . لكنه بقى بعد إذ أبل من مرضه زمناً طويلاً في دور النقاهة . هنالك رأى أن البقاء بين جدران شمبى لا يمكن أن يلائم صحته أو يوافق مزاجه فطلب إلى صاحبه الخروج معه إلى الريف . وبعد تردد عزم على الذهاب إلى ( الشارمت ) على مقربة من شمبى مع إبقاء منزلهما في هذا البلد .

وقضى جان جاك في ( الشارمت ) أسعد أيام حياته . وإلى القارئ كلمة من اعترافاته في وصف ذلك الزمن من عمره قال :

« هنا بيتدى الزمن القصير السعيد من أزمته حياتى . هنا نجى . البرهات السريعة الهادئة التى تجعلنى أقول إننى حيت . إيه أينها اللحظات الثمينة المأسوف عليها . ارجعى فاسترجعى مسراك الهنى . انسانى فى ذاكرتى إن استطعت أكثر بطئاً مما كنت فى سرعة مرك . ما عساي أعمل لأطيل كما أريد هذه الذكرى البسيطة المؤثرة ولأقول وأعيد الأشياء نفسها . ولا يمل قارئ بإعادتها كما لا أمل أنا باستعادة ذكرها ؟ ولو أن ما كان يومئذ كونه الوقائع والأعمال والكلمات لاستطعت وصفه وتبيانته . ولكن ماذا أذكر عن شيء لم يقل ولم يعمل بل ولم يأخذ أى مكان من الفكر ولكنه ذيق بل أحس وليس عندى ما استظهر به قيمة سعادتى غير ذلك

الإحساس نفسه ؟ كنت أستيقظ مع الشمس وكنت سعيداً . كنت أنتزه وكنت سعيداً . كنت أرى أمي وكنت سعيداً . وكنت أتركها وكنت سعيداً . كنت أقطع الغابات والأحراش وكنت أجوب الأودية وكنت أقرأ وأسكت وأشغل في الحديقة وأجمع الفاكهة والسعادة تبغني حيث كنت ولا تستطيع تركي لحظة لأنها لم تكن في شيء معين بل كانت ممتزجة بنفسى وروحي » .

على أن انغماسه في السعادة لم يقطع على المرض طريق سريانه ولم يعد إلى المريض صحته . بل لقد تزايدت آثاره بما زاد روسو بأساً من الحياة وطلباً للموت . ومن بعض هذه الأمراض ما لا أستطيع وصفه بأبلغ من كلمات روسو نفسه . وها هي ذى :

« بينا أنا ذات يوم ، ولم أكن أسوأ حالاً مني عادة ، بينا أنا أرتب منضدة إذاني أحسست بثوران في جسمي أشبه شيء بعاصفة هاجت دمي وامتدت منه في لمح البصر إلى كل أعضائي . وابتدأت شرابني تدق بقوة لم أقف عند الإحساس بها بل كنت أسمعها ، وصحب ذلك دوى في آذاني تنوع إلى ثلاثة أو أربعة أنواع . فصرير قوى أصم . وخرير أكثر وضوحاً كأنه خرير الماء الجاري . وصفير حاد . وذلك الدق الذي سبقت الإشارة إليه . وتبينت أمامي المدقات من غير حاجة مني لأحس أعصابي أو ألمس جسمي بيدي . ومنع على ذلك الدوى الداخلى الشديد ما كان عندي قبل يومئذ من دقة الأذن وجعلني وإن لم أكن أصم قليل السمع ، كما بقيت من ذلك الحين » .

وأعقب ذلك عند روسو قلقاً وأرقاً . وأصبحت الحياة عنده محلاً لليأس كما أصبح انتظار الموت من بعض آماله .

جاء الشتاء واضطر روسو للرجوع من الشارمت حيث الطبيعة البكر والمناظر البديعة التي امتازت بها السافوا ودخل كنه في ( شمبى ) ووثق علاقته بالذكور ( سالومون ) الذي أصبح طبيب البيت . وكان الدكتور سالمون رزيناً مطلعاً فصرف روسو معظم وقته في الاستفادة من علمه ، كما أنه استمر دائباً على القراءة والبحث . وفي هذه المرة جعل بحثه علمياً مرتباً مبنياً على قواعد متينة تؤدي إلى الإلمام بالعلم والإحاطة بما تعلق به . وكان له في مطالعته عزاء عن ضيق البلد الذي يعيش فيه ، كما أنها كانت تنسيه بعض ما هو فيه من مرض وألم .

فلما انتهى الشتاء ورجعوا إلى الشارمت عمل على إضافة بعض أعمال يدوية إلى قراءاته . غير أنه لما اشتغل في الحقل أحس بضعفه المطلق عن القيام بأعماله التي أربت على قواه والتي كانت تورثه الخفقان والدوار . فاشتغل بتربية الحمام وجعل يملأ به من فراغ وقته ما لم تشغله المطالعة .

وأصبح يعيش إلى حد ما عيشاً مرتباً منتظماً : « فكننت أستيقظ كل يوم قبل مطلع الشمس وأصعد إلى أعناب تجاورنا ينساب بينها طريق جميل تحيط به الكروم حتى يصل إلى شميرى . وهناك في نزهي كنت أقيم صلواتى . ولم تكن هاته الصلوات مجرد كلمات تنطق بها الشفاه بل كانت صعوداً مخلصاً بقلبي إلى مبدع هاته الطبيعة الحلوة التي تمتد أمام ناظرى . وما أردت يوماً أن أصلى لله في غرفتي إذ كان يجيل إلى أن الجدران ونحوها من الأشياء الضئيلة التي صنعتها يد الإنسان تحول بيني وبين الله . وإنما وددت دائماً أن أشاهد صنعه في حين يرتفع قبي إليه . وكانت صلواتى طاهرة وتستحق لذلك إن صح القول أن تجاب . . على أن عبادتى إنما كانت مشاهدة وإعجاباً لا طلباً . . ثم أرجع من نزهي من أطول الطرق تشغلني مناجاة ما يحيط بي ويسحرنى من مناظر الحقول بلذة وشهوة . هاته المناظر التي تسترعى وحدها القلب والعين فلا يكلان أبداً عن شهادتها . »

فإذا رجع جلس إلى (أمه) يحادثها وتحادثه ثم يتركها إلى كتبه حتى تحين الظهيرة ويحيى موعده الغداء . . ويقضى بعد الظهر في زيارة طيوره ومحادثة أصحابه وقراءة كتبه .

وكان يومئذ قد بلغ رشده ففكر في المطالبة بميراثه عن أمه وذهب إلى جنيف لهذه الغاية . وأسعده الحظ فلم يلق في سبيله العراقيل التي لا تفتأ تقوم كلما طرحت مسألة أمام القضاء . واقتسم ذلك الميراث الضئيل مع أبيه وأخذ نصيبه وتصرف فيه واشترى بقسم من ثمنه كتباً ثم حمل الباقي إلى مدام دفرانس . ورجع إلى العيش معها وبين رياضاته ومطالعاته .

وفيما كان يدرس كتب الطب دخل إلى نفسه الاعتقاد أنه مصاب بمرض في السبب هو أصل كل بلواه . فعزم على علاج نفسه من ذلك المرض . لكن صانه بلاده لم يكونوا بحيث يصلون إلى معرفة دوائه . فذكر أن (كلود آنيه)

كان قد أخبرهم بعد رجوعه من سفره إلى مونبلييه أن الدكتور « فيز » يدهى مرض القلب بدقة ومهارة . هنالك صمم على الذهاب إليه . ولم يقف دون تصميمه أى حائل لأن ما حمل من ميراث أمه ضمن نفقات سفره . كما أن إرادة مدام دفارانس لم تكن لتقف دون سفر غايته أن يعود سليماً معافى .

وأعد أهبه للسفر وسافر حتى إذا بلغ جرنيل تقابل مع عروس مسافرة مع حاشيتها وصحبها سيدة تدعى مدام ( دلارناج ) . واستمر في الطريق الذى فيه يسرون من غير أن يكون بينه وبينهم أى تعارف . لكن السفر من شأنه أن يخلق المعرفة . فجعلت السيدتان تسألان كل صباح عن صحة هذا المسافر معهما بل لقد سألتاه أحياناً كيف قضى ليله .

ومن غرائب جان جاك التى لا تنتهى أنه لما سئل عن اسمه وبلده ادعى أنه إنجليزى ذاهب للتداوى بمونبلييه . فكأنه برغم تقدمه فى العلم والسن وبرغم حسن الحال الذى كان فيه لم تزل تعاوده نزوات الكذب التى اعتاد صغيراً .

وتركته العروس وحاشيتها عند رومان وتركت معه مدام دلارناج . فلم يمض زمن حتى وقع حبه من قلبها أى موقع . وقع منها بحيث لم تستطع بعد يوم من انفردهما وبرغم خجله الشديد دون أن تهبه نفسها وتجعله يقول بعد سنين من ذلك فى اعترافاته : « ولولا مدام دلارناج لمت من غير أن أعرف المذات » .

وكان اسمه عندها ( ددنچ ) وهو الاسم الإنجليزى الذى اختاره لنفسه وبنت معه أياماً قصيرة أنسته فيها مرضه وأنه . فلما حان لهما أن يفترقا أخذت عليه عهداً أن يعرج عليها « بسانت انديول » حين رجوعه من مونبلييه ووعدها بذلك وعداً صادقاً . ولما وصل إلى مونبلييه استمرت المخاطبات بينه وبينها من غير انقطاع .

على أنه لم يجد فى مونبلييه فائدة تذكر بعد إذ أقام بها ستة أسابيع كاملة . وكل ما ظهر له أن الأطباء الذين بها والدكتور ( فيز ) نفسه لا يعرفون مرضه بل يدعون أنه ليس مريضاً . فصمم على الخروج منها والذهاب إلى سنت انديول حيث صاحبته التى أنسته فى سابق تعارفهما كل ألم . لكنه لما تنصف الطريق فكر فى أمره ونسيانه المشين لمدام دفارانس وفيما يؤول إليه حاله إذا هو ذهب إلى مدام دلارناج وخشى أن يفتضح أمره وألا يجد هناك من السعادة ما وجد من قبل

في شمبرى وفي الشارمت . لذلك عدل عن عزمه ومضى قاصداً السافوا مقره القديم .

ووصل إلى شامبرى . فلما قابل مدام دفارانس قابلته ببرود أشد ما يكون مغايرة لما كانت تلقاه به من الجدل قبل يومئذ . فهمه ذلك كثيراً . ثم عرف أن شاباً آخر أخذ مكانه وأصبح عشيق « أمه » المحبوبة لديه .

طبيعى أن يحتاج روسو أمام هذا المنظر الخسيس . طبيعى أن يدق برأس بهاته الفاجرة الأرض . طبيعى أن تعروه جنة تدفع به إلى كل المواقف . لكن شيئاً من ذلك لم يكن . وإنما شعر بشيء من الأسى دفعه إلى أن احتجب في غرفته بعد ما عرضت هي عليه أن يشارك « فترنريد » فيها كما شارك كلود آنيه من قبل . وقد رفض مملوءاً أسفاً وحرناً .

وبقى في البيت ولم يسافر إلا بعدما أظهر له كل من فيه الإغضاء عنه بل الامتعاض منه . هنالك نفذ صبره وأخبر صاحبة القديمة بعزمه على السفر إلى ليون . فابتهجت لذلك وزودته بخطاب لصديقة لها كان سبباً في اشتغاله مريباً لأولاد المسيو ( دمايلى ) حيث أقام يعلمهم سنة كاملة .

ولقد لقي مدة إقامته رحباً وسعة . ومع أنه أظهر العجز المطلق دون القيام بالمهمة التى عهد بها إليه كما أظهر عدم الاستعداد لما أرادت مدام دمايلى أن تعوده إياه من رقة المعاشرة ، فإن رب الدار لم يبادلها إلا كل عطف وود . بالرغم من ذلك فقد تآقت نفسه للنيذ مرة فلم يجد من غضاضة في اختلاس زجاجات مما فى البيت ولم ينسه طول الزمن الالتجاء إلى السرقات الضئيلة التى اعتاد أيام صغره وأيام كان فى الضنك والضيق .

ولما استحس من نفسه العجز عن القيام بمهمته استقال منها فأقبل . ورجع إلى الشارمت حيث قابلته مدام دفارانس ومعها صاحبها الجديد بالفتور الذى قابلته به المرة السابقة . فلما أقام عندها زمناً لاحظ أن حالها تتدهور لكثرة ما كان يكلفها ( فترنريد ) من النفقات وصمم على العمل لإيجاد ما يقيمه ويعينها . فعنى بوضع طريقة جديدة لرقم الموسيقى حتى إذا استكملها فكر فى الذهاب إلى باريس لعرضها على الأكاديمية هناك . ولما استتمت هذه الفكرة وأصبح قديراً على إنفاذها تأهب للسفر . فترك الشارمت متخذاً إلى باريس طريق ليون حيث

قوبل بالترحاب والتحية وحيث زود بالخطابات إلى جماعة من كبار الرجال في العاصمة الفرنسية ممن يؤمل فيهم معونته .

\* \* \*

هنا ينتهى العصر الأول من حياة روسو . هنا ينتهى الزمن الذى قضاه مشتتاً متشرداً لا صناعة له ولا حرفة يعيش كلاً على غيره وعيلاً على غير أهله . وإذا كان لم يقم يوماً من أيام حياته مقام ثبات واستقلال فإن ذلك الزمن الذى مر بالقارئ ذكره هو أكثر أزمنة حياته تشرداً وضياًعاً .

وهنا نترك روسو شاباً حلو الطلعة دمث الخلق قوى الحس متوقد الخيال عظيم الحياء والخجل قليل الاعتداد بالفضائل العامة سريعاً إلى الكذب والسرقة لا يحسن عملاً خاصاً يمتاز به . وتركه مريضاً عانى الآلام أنواعاً وقاسى الأمراض ضرباً . فأصابه فوق ما منى به من أول أيام حياته من انقباض المثانة والخفقان والدوار وما تبعهما من الأرق وحب الوحدة .

تركه وترك جانباً صلاته النسائية وجولاته القديمة لنفكر وإياه فى الانتقال إلى العاصمة الهائلة طلباً للثروة والعظمة .

## ٣

ترك روسو مدام دفارانس مع رفيقها الجديد (فنتزريد) وسافر قاصداً باريس ليعرض على أكاديميتها طريقته في رقص الموسيقى . فمر في طريقه بليون ومكث بها أياماً زار فيها أصدقاءه العديدين الذين عرف أيام كان معلماً لأبناء المسيو ( مابلي ) . ولقد استفاد من هذه الزيارات كثيراً حيث زود بخطابات تقدمه إلى جماعة من كبراء باريس ومن يستطيعون نفعه . فأعطاه المسيو ( مابلي ) خطابات إلى ( فونتيل ) وإلى الكونت ( دكايلوس ) وقدمه المسيو ( بورد ) إلى الدوق ( ريشليو ) الذي كان يومئذ بليون والذي وعد جان جاك أن يراه في باريس .

ولم يفته في ذلك الزمن القصير الذي قضاه بليون أن يتعلق بمدموازل « دلاسير » حتى يشغل بها خياله زمناً ما . ولقد كانت هاته الآنسة في مثل مركزه الاجتماعي لا تملك شيئاً غير جمالها ومعرفتها . ولولا أنها كانت مخطوبة لأحد التجار لما امتنع عن التفكير في البقاء معها كما كان مع مدام دفارانس وكما فكر في أن يكون مع مدام دلارناج .

وأخيراً ارتحل حتى وصل باريس . ولم يرها هاته المرة بالعين التي رآها بها لأول ما نزلها . بل لقد ظهر له ما فيها من إبداع وجمال متحلياً في أحسن مظاهره . ولكأن هذه المدينة الكبيرة بما ينبعث عنها من الخيال الغريب للنفس قبل أن ترتب في الذهن فكرة صحيحة عنها لا تظهر بما هي عليه من عظمة لأول مرآها . فإذا غادرها الرائي ورجع إليها وقارنها بما رأى تبدى له كل ما فيها من معاني الإبداع والعظمة .

قال : « حلت باريس في خريف سنة ١٧٤١ ولا أملك إلا خمسة عشر جنيهاً فرنسياً وروايتي ( ناريسيس ) واقتراحي بشأن الموسيقى . لذلك كنت في أشد الحاجة للاستفادة من وقتي الضيق فأسرعت إلى عرض خطابات التقدمة . والشاب

السنى يصل باريس ويكون مقبول الشكل ويظهر عليه أثر المواهب واثق دائماً من أن يجد قبولاً حسناً . وكان ذلك شأني .

وكان من بين من تقدم إليهم يومئذ المسيو ( بوز ) ومن طريقه عرف المسيو ( ريومير ) الذي مكته من عرض طريقته في رقيم الموسيقى على أكاديمية العلوم . ولم يجد أعضاء المجمع بأساً من النظر في الاقتراح بعد أن تفحصه لجنة عينت لهذا الغرض . وبعد مناقشات طويلة بين أعضاء هذه اللجنة وبين روسو انتهى الأمر بعدم قبول الاقتراح ورجع روسو بعض بنان الندم على ما أضع من وقته ويزدرف دموع الأسى على انهدام صروح أحلامه .

وبعد فشله هذا كتب كتاباً يعرض فيه على الرأي العام اقتراحه طالباً إنصافه مما وقع به من الحيف والظلم فلم يكن كتابه أكثر رواجاً وقبولاً عند الناس من طريقته أمام اللجنة . وضاع عليه من جديد ما صرفه من الوقت والمجهود في كتابة هذا الكتاب .

غير أن مساعيه هذه وإن لم تفده مباشرة إلا أنها سمحت له بمعرفة عدد غير قليل من العلماء وذوى الرأي في البلد . مع هذا فقد اضطره فقره ليقصر زيارته على عدد قليل من الناس حتى لا يعرض ماء وجهه لكل إنسان . ولا يعجبني القارئ لذلك بعد أن عرف ما اجتمع في روسو من الحياء والغرور . فكان يزور ماريغو وفونتيل . وقد اطلع الأول على روايته ( ناريسس ) فأعجبه وأراها شئب من سن جان جاك يومئذ هو ( ديدرو ) الذي صادق روسو بعد ذلك زمناً غير قليل .

وكان يقضى القسم الكبير من فراغه في لعب الشطرنج بقهوة ( موجي ) . ومرت الأيام على هذا النحو يقضيها بين أصحابه وبين الشطرنج ويرى بعينه نفاذ ثروته الضئيلة . وفيما هو يوماً كذلك وقد أفلس أو كاد قابله القس ( كاستل ) وقال له : « إذا كان الموسيقيون والعلماء لا يتبعون طريقتك فادلف إلى النساء فقد يصادفك النجاح عندهن . ولقد سبق لي أن حدثتك عن مدام ( دبرنفال ) فإذهب إليها من جانبي وسترى عندها ابنتها مدام « دبرجلي » وهي سيدة ذات ذكاء وعقل ومدام ( دوين ) وهي كذلك سيدة عاقلة تود بعد أن خاطبتها في أمرك أن تراك وستحسن لقاءك . واعلم أن الإنسان لا يستطيع في باريس شيئاً إلا بمعونة النساء . » وبعد شيء من التردد ذهب فزار مدام ( دبرنفال ) وابنتها فأحسنا رفته وطلبا

إليه أن يتردد عليهما . ولقد كانت علاقته بهما مما جعله يتوقع قرب الفرج والخروج مما كان فيه من ضنك وبؤس .

وفي هذه الفترة زار مدام ( دوين ) وقدم لها كتابه الذى دافع به عن طريقته فى الموسيقى فقبلت هديته وأحسنت استقباله ونخاطبته فى أمر اقتراحه مخاطبة علم بالموسيقى وحجزته عندها للعشاء . هنالك جن بها . ما لبث أن سمحت له بالتردد عليها حتى جعل يذهب إليها كل يوم ويتناول العشاء عندها مرات فى الأسبوع . ولما كانت من صاحبات الصالونات الفخمة التى يتردد إليها السيدات والكبراء والكتّاب أمثال فونتنتل وبوفن وفولتير فقد استفاد روسو من زيارته لها أكبر الفائدة ، غير أنه كان على ما عرف القارئ عيا وسط الجماعات لا يستطيع التفوق فى الحديث ، بل ولا ينطق صواباً . لذلك كان أغلب وقته صامتاً لا يبين .

لكن تعلقه بدمام دوين لم يترك له الهدوء والسكينة . ففكر فى أن يكتب برسمها رواية موسيقية أسماها « الميزجالانت أى الشيطانات الرقيقات » . وبدأ عمله واستمر فيه . وقبل أن يتمه تعين بعناية مدام « دبزنفال » سكرتيراً « للمسيو منتاجو » فنصل فرنسا بالبندقية فسافر إليها وكله الأمل فى مستقبل باهر . وما كان أسرعه إلى الأمل عند كل فكرة أو حادثة جديدة تصادفه . واستمر مشتغلاً بالرواية التى يكتب وبالموسيقى التى كان يعدها لها .

ووصل إلى البندقية وتسلم أعماله وحاز ثقة القنصل الذى كان على ما نخبرنا روسو رجلاً ضيق العقل ضئيل الفكر ضعيف الخلق حتى اختلف معه آخر الأمر خلافاً انتهى بانفصال جان جاك بعد ما حاز ثقة الجالية الفرنسية بسبب ما عمل جهده لخيرها : قال : « وكنت أعمل دائماً باستقامة وهمة ونشاط تستحق من جانب « القنصل » مكافأة غير التى نالتى بها آخر العهد . ويومئذ حان الزمن الذى يظهر فيه عملى مقدار ما جتني به السياء من مواهب وما أفادتني إياه خير النساء من تربية وما حصلته بنفسى من علم . وقمت بأداء واجبي وخدمت فرنسا ولم أكن مديناً لها بشيء خدمة صادقة كما خدمت القنصل بعدل فى كل ما تعلق بي . وقمت بذلك برغم وحدتى وغيبة الصديق وانقطاع الناصح وقلة التجربة وخدمتى أمة أجنبية وبرغم أنى كنت محاطاً بحتالة من أهل السوء الذين كانوا يغرونى دائماً بمجانستهم خدمة لهم ، ولكى لا يكون وجود المثل الحسن قذى

في عيونهم . ولقد استحققت لحسن قيامي بالعمل في هذا المركز المحسود احترام الجمهورية واحترام جميع القناصل الذين كانوا يرأسوننا وعطف جميع الفرنسيين المقيمين بالبندقية وحصلت عليه . »

على أن حسن علاقته برجال القنصلية وشديد مقاومته لأهل السوء منهم لم يفده كثيراً واستطاع الأخيرون تغيير قلب القنصل عليه واستفاد صبره هو حتى اضطره لترك ( هذا المركز المحسود ) فخرج منه ساخطاً على نظام السفارات والحكومات وإن تعزى ببعض ما كان من عطف الناس عليه .

والغريب أن روسو لم يترك في اعترافاته شيئاً عن أثر جمال البندقية على نفسه . غريب حقيقة أن يوجد هذا المولع بالطبيعة الوصاف ولآثارها الذاكر الشارمت ووثيق وغيرهما أطول الذكر وسط جمال هذا البلد الغريب ومبانيه الفخمة وعظمته ورقته ثم هو ينسى كل ما تعلق بذلك من أمره وشأنه .

لكنه إلى جنب ذلك لم ينس أن يذكر نوادره النسائية هناك . فبعد أن أقام زمناً طويلاً متبعاً أقسى نظام الطهر والفضيلة دلف مع صاحب له إلى بغى تدعى ( البادونا ) . ثم تقابل بعد ذلك مع فتاة اسمها ( زوليتا ) تركت في نفسه أثراً يكاد يعدل ما يترك العطف الحلو والميل الرقيق من الأثر . ولقد كانت هذه المقابلة الأخيرة مثاراً في اعترافاته لهذه الكلمة الجميلة الخالدة :

« دخلت غرفة البغى فكأنما دخلت معبد الجمال والحب وتبدى شخصها لناظري لابساً ثوب القداسة . ولولا هذا الاحترام الذي كان عندي لما أحسست بمثل ما أحسست به أمامها . وما لبثت حين رفعت الكلفة بيننا وعرفت ثمن جمالها ونوالها حتى أسرعرت أريد أن أجنى ثمرها خيفة أن تضيع مني . ولكنني شعرت فجأة بدل النيران التي كانت تأكلني بيرد قاتل ينساب في عروقي فارتعدت رجلاي وجلست أبكي كأني الطفل .

« من ذا يستطيع أن يعرف سبب بكائي وما مر برأسي في هاته اللحظة ؟ إنما قلت في نفسي : هذا المتاع الذي أصرفه هو أبهى ما أبدعت الطبيعة وأنتج الحب . فعقلها وجسمها وكل ما فيها كامل وطيبها وكرمها يوازيان جمالها ورقها . يجب أن يكون الكبراء والأمراء عبيدها وأن تكون الصوالج تحت أقدامها . مع

هذا فها هي ذى متجولة بائسة مسلمة إلى الكافة يلهو بها ربان مركب تجارية ثم تحي، وتنتي نفسها بين يدي وهي تعلم أنى لست شيئاً .

في هاته الكلمة روح جديدة لم تكن معروفة قبل روسو . روح العطف على المرأة الساقطة . وهي روح ما كان لغير ابن الشعب الشريد روسو أن يلمسها أو أن يحس بها وسط جمعية ذلك العصر المترفة الدعية . وما كان لغيره من الهيايين للفضائل المقررة أن يتقدم بها بهذه القوة . فلما نشهدا امتدت وتشعبت بمقدار امتداد الرومانترم وتشعبه .

ورجع روسو من البندقية إلى باريس وجعل يعرض شكواه على ذوى الأمر فلم يحفل بشأنه أحد ولا أصغى لشكواه إنسان . فثارت نفسه وإشمامز من الظلم المبني على المبادئ الحكومية لذلك الوقت . وصمم تصميماً أخيراً على ألا يشتغل في السفارات ما عاش . ورجع إلى البيت الذى أقام فيه من قبل بشارع ( سان كنتان ) وشرع فى إتمام روايته « الشيطانان الرقيقات » .

حدث فى ذلك الحين أمر كان له أكبر الأثر فى حياة روسو . فقد عرف فتاة كانت معه فى المنزل تدعى « تريزلفاسير » شاركته بعد ذلك حياته وظلت معه حتى يوم وفاته .

جاءت تريزلفاسير إلى المنزل فاستلفتت نظر الحاضرين بما ظهر على شكلها من بساطة أهل الريف وبلهجه . لكن روسو أعجب منها بتواضعها ورقتها . فلما جعل الحاضرون يمزحون معها ويغازلونها أخذ هو على عاتقه حمايتها والدفاع عنها . وسرعان ما تعلق بها وخالطها وجعل منها الشطر الذى خلق له من يوم خلق الحياة . وتريزلفاسير ابنة تمتهن تنظيف الملابس وغسلها وأمهاتاجرة صغيرة فى أورليان وكان أبوها عاملاً فى دار المسكوكات ثم تدهورت حاله وترك وظيفته .

لم تكن هذه المعلومات من عزم جان جاك على ضمها إليه . بل لقد وجد فيها الشخص المكمل له ولذى لا غنى له عنه . وهذا برغم عتائها الذى بقى على فطرته لا يعلق به تهذيب ولا تقيدته تربية : « ولست أخجل حين أعرّف أنها لم تحسن أبدا القراءة وإن كانت تكتب كتابة مقبولة . ولذا أقمت فى شارع ( بتي شان ) كان مقابل نوافدى فى قصر ( بونتشارترن ) ساعة كبيرة جاهدت أكثر من شهر لأعلمها فيها معرفة الوقت وهي الآن لا تكاد تعرفه . وما استطاعت يوم

أن تفهم نظام الاثني عشر شهرا السنوية . وهي لا تعرف رقما واحدا برغم المجهودات التي أنفقت لإفهامها الأرقام فلا تعرف عد النقود ولا ثمن شيء ما . والكلمة التي تنطق بها هي أغلب الأمر عكس ما تريد أن تقوله . على أنها برغم مبلغها هذا من العبادة - بل من البلادة إذا أراد القارئ - فلها نصائح ثمينة في أخرج الأوقات . وكثيراً ما رأت ما لم أره أنا أيام كانت تحيط بي الخطوب في سويسرا وإنجلترا وفرنسا . وكثيراً ما انتشلتني يومئذ من أخطار كنت أقدم عليها إقدام الأعمى . ولقد أكتسبها إحساساتها وحسن نظرها وسلوكها الاحترام العام أمام أرقى السيدات وأمام الكبراء والأمراء كما سمعت أنا من أجلها ثناء ظاهراً إخلاصه .

هذه هي المرأة التي شاركت روسو حياته وهذا هو حكم روسو عليها . ولقد استتارت هذه الحادثة في نفس جميع الذين كتبوا عنه الأسف على هذه الرابطة غير اللائقة به . والتي كانت تعيسة الأثر في مستقبله . ولم يخرج على هذا الرأي إلا جول لمر الذى يرى المسألة طبيعية بالنسبة لشخص روسو ولمركزه . ولا يفوت القارئ أن جول لمر أشد النقاد كراهية لروسو وحتداً عليه حتى ليخيل نك حين تقرأ الكتاب الذى حوى محاضراته عنه أنه معاصر منافس له مع أن روسو ابن القرن الثامن عشر ولتر لم يمض إلا عام ١٩١٤ . لذلك فإن تقديره بالنسبة لهذه المسألة كتقديره في غيرها موضع اللطعن والتزريف .

والذى لا شك فيه مطلقاً أن هذه العلاقة بين روسو وتريز كانت من انعس ما منى به روسو في حياته وبالأخص في أخترياتها . فلقد بقيت أمراضه النسبية كميله للوحدة وسوء ظنه بالناس وعدم ثقته بأحد منهم تقوى حتى وصلت به أخيراً إلى الجنون . فلو أن رفيقة حياته كانت غير هاته البلهاء لما وقع في كل هذا انعس الشنيع . كذلك فقد كانت رابطة بها سبباً لأكبر الجرائم التي ارتكبها في حياته - إن كان قد ارتكبها حقيقة - جريمة التنازل عن أولاده للملجأ اللقطاء .

أما عن أثرها في كتاباته فلا ينفي أحد ما لمعاشرتنا وأصحابنا علينا من الأثر في الإحساس والتفكير وبالتالى في طريق نقلهما بالكلام والكتابة .

دخلت تريز إلى نزل سان كنتان واستحقت لبساطتها وشدة حياتها حماية جان جاك الشديد الحياء الكثير الخجل . وتعارفاً وتحاباً ، ووعد جان جاك أنه لن يتركها ولن يتزوجها . ولما أخبرته في خجل بأن شاباً استغواها عن نفسها مبتداً

الشباب لم يكن منه إلا أن صاح إنها كذلك أحب إليه . وفي قليل من الزمن توثقت المعرفة بينهما وأصبحت محبوبته ورفيقته .

وبعد أن فرغ من أوبرا ( الميزجالانت ) عرضها على مدام ( دلايلينير ) لتعرضها على أستاذهما « رامو » كبير كتاب الموسيقى في ذلك العصر . فحكم بأن بعضاً منها يستحق الإعجاب في حين يدل الآخر على جهل مؤلفه جهلاً مطبقاً في الفن . فلما سمعت ربة البيت حكم أستاذها اعتبرته آية لا سبيل لنسخها أو تبديلها . لكن ريشليو ، وكان يكثر التردد على مدام « دلايلينير » ، أعجب بأوبرا روسو حين سمعها ووجد أن تمثل في البلاط في فرساي . وقد مثلت بالفعل وطلب الملك أن يقدم روسو إليه . فاعتذر بما هو عليه من سوء فهم نظام الاجتماعات الراقية وكان يومئذ قد لزم عيش التقشف والزهد وانقطع لتريزلفاسير .

ولشدة ما أعجب ريشليو بأوبرا روسو فقد عهد إليه ليصلح شأن أوبرا كان فولتير قد وضع شعرها ووقع موسيقاها « رامو » نفسه . فقام بذلك برغم المصاعب التي كانت محيطة به من مرض وفقير واحتفظ جهده بكل ما يمكن الاحتفاظ به من عمل المؤلفين ، ومع ما أنفق في عمله من عناء فقد غمطه « رامو » واجتهد فلم يترك لاسم هذا المنافس الجديد أن يظهر في « أعياد رامير » . ولقد أثر هذا العمل في نفس روسو حتى أمرضه وألزمه الفراش فبقى في بيته ستة أسابيع لا يفارقه . ولم يتمكن من مقابلة « ريشليو » بعد ذلك فصاعت عليه أتعابه وضاع عليه وقته ولم يستفد من عمله فلساً في وقت كانت يده قد خلت من الأصفر والأبيض . ولولا ما خصه من ميراث أبيه الذي توفي حوالى ذلك الحين لوقع في أشد الضنك والبؤس .

« ومضى الوقت ومضى النقد معه . وكنا اثنين بل أربعة بل سبعة أو ثمانية . ذلك لأنه وإن كان إخلاص تريز لا مثيل له فإن أمها لم تشاركها إياه بل كانت كلما رأت أمر ابنتها صلح بعض الشيء جلبت كل عائلتها يقاسمون تريز صلاحه . فيجيء إخوتها وبناتها وأبناؤها وحفدتها خلا كبرى بناتها التي كانت متزوجة . وبذلك تحتل الأم منها كل ما أعمله أنا لها ولمصلحة هؤلاء الجياع . . وعجيب أن تكون صغرى بنات مدام لفاسير والوحيدة التي لم يمهرا أبواها ، هي الوحيدة التي تقوم على أمها وأبيها وتطعمهما . ثم أن يسرقها إخوتها وأخواتها ، بل بنو أخواتها

بعد أن يناوها بالضرب والأذى ولا تستطيع التخلص من ضربهم ولا دفع سرقهم .  
ولما يئس من كل معونة من جانب ريشليو ومدام دلايلينيير وفيما هو في همه  
وشجنه لخلو ذات يده صادفته عناية مدام دوين والمسيو فرانكي فاتخذاه سكرتيراً  
لهما ورتبا له تسعمائة فرنك في السنة وأنقذاه بذلك من مخالب الفاقة . وكان  
فرانكي يدرس الكيمياء في ذلك الوقت وأعد لها في بيته معملاً . فاستفاد روسو  
درسها معه وصارت عدة جديدة في جعبة معلوماته المملوءة بأغرب الأشياء وأكثرها  
اختلاطاً بالأدب والتاريخ والموسيقى والرياضيات والطبيعات .

وانقلوا وانتقل معهم من باريس إلى قصر بديع في « شنسو » . قصر ملكي  
بني على نهر الشير أقامه هنرى الثالث لتسكنه محبوبته « ديان دوبواتيه » الجميلة .  
وأَمْضُوا الخريف هناك بين قصف وهو وطرب . فكان روسو يكتب الروايات يقوم  
بتمثيلها المتزهون أنفسهم . وقضوا زمناً حلوّاً زمن هناء وسعة . فلما رجع روسو إلى  
باريس وجد تريز لفساير حبيلى .

هنا تبدأ سلسلة الجرائم التي ارتكبتها بإلقاء خمسة أبناء تباعاً في ملجأ اللقطاء .  
وقد اعتذر روسو عن جريمته هذه بسفسطات طويلة سذكرها للقارئ من غير  
تحيز . ولكننا نشير قبل ذلك إلى الخلاف القائم بين المؤرخين بشأن أبناء روسو .  
تقدم بنا القول أن جان جاك كان مريضاً باحتباس في المثانة . فلما رأى  
أنصاره والمعجبون به فظاعة هذه الجريمة لم يتصوروا صدورها من رجل إن كان  
قد تدنس في صغره باختلاسات وأكاذيب فإن حياته كانت كلها حياة فضيلة  
مطلقة . فقال بعضهم إن ما اعترف به روسو إنما هو من أكاذيبه وإنه لم يخلف  
في الحقيقة ابناً لأن مرضه أعقمه . وإنما ألجأه لاقتراف الكذب ما كان هو عليه  
من شدة الميل للنساء . فكان يخشى إن هن عرفن عقمه صدفن عنه ولم تقبل  
منهن واحدة عليه .

وقال آخرون إن روسو لم يقل في اعترافاته إنه رأى أبناءه وإنما قال إن  
مدام لفساير أم تريز هي التي كانت تحبّه بيخبر الحمل وهي التي كانت تأخذ  
على عاتقها إبداع الطفل عند ميلاده ملجأ اللقطاء . ومعروف أن مدام لفساير  
كانت لها مصلحة في توثيق صلة روسو بابنتها لكي تستمر في استغلاله . فكانت  
تكذب عليه بادعاء الحمل على انتها ، والدليل على ذلك أن تريز كانت تقضى

الكثير من وقتها في صحبة السيدات من صاحبات جان جاك روسو أمثال مدام دوين ودمام دلكمسمبور ولم تلاحظ إحدى هاتيك السيدات الحمل مرة بل هن جميعاً يقررن أنهن إنما علمن بأبناء جان جاك روسو منه وحده ولم يعلمن بهم من أى طريق آخر .

ورأى ثالث أن تریز حملت حقيقة ولكن من غير جان جاك . وإذن فجریمته أقل فظاعة لأنه لم يكن يحس في أعماق قلبه بهذا الإحساس الأبوي المملوء حناناً على الابن الذى ولد ولم يره أبوه .

هذه هى الآراء التى عرضت في الموضوع . وعندنا وقد عرفنا جان جاك وأخلاقه وضعف إرادته وقلة اعتداده بالفضائل لكثرة ما مر به من المحن . إنه سواء كانت تریز حملت منه أو من غيره أو لم تحمل فإنه كان يعلم حقاً أو باطلاً أنها حامل ويرضى بعد علمه بالأمر أن يوضع الابن في ملجأ نقضه . وأما تریزه لعمله هذا فيختلف بمضى الزمن وتعاقب الأبناء .

وإننا نعتقد أن الجريمة مهنا تكن كبيرة في ذاتها فإن ما عرفناه حتى الآن عن حياة روسو المشتردة التى جعلته أقرب لأن يكون من اللقطاء من أن يكون من عائلة خاصة هى التى هونت الأمر على نفسه وهى التى تجعله أقل مسئولية عن عمله . وهذا هو السبب في أن المعاذير التى قدمها عند ارتكابه هذا الأمر للمرة الأولى لم يكن فيها أى شيء من معنى الأسف أو الألم . وإننا سنوضح كل عذر قدمه في الوقت الذى قدمه فيه .

رجع من شنسو ووجد تریز حاملاً . وكان في ذلك الوقت يأكل في مطعمه عند الأوبرا يجتمع إليه أخلاط من الشبان زمراً .

« وقد عرفت هناك نواذر مضحكة . . عن أزواج خانهم نساؤهم ونساء غرر بهن ، وميلادات خفية . وكان من يحكى عنه أنه أكثر من غيره يراد في تعمير ملاحجى اللقطاء موضع إعجاب مستمر . فاقنتعت بذلك وكونت فكرتى على مثال ما رأيته شائعاً عند قوم على جانب عظيم من الرقة والطيبة وقلت في نفسى : مادامت تلك عادة البلاد ففي طاقة الإنسان اتباعها مادام عائشاً فيها : وكذلك اخترت هذه الطريقة وصممت على إنفاذها بلا اكتراث ومن غير أن يعرفون أى هم . » وأعطى الطفل بعد ميلاده إلى مدام لفاسير فأودعته في ملجأ اللقطاء .

وبعد سنة حملت تريز مرة أخرى وأرسل ابنها إلى ملجأ اللقطاء ولم يعر روسو المسألة اهتماماً أكثر مما أعار سابقتها ولا هو آسف أو تألم ولا عد في عمله ما يوجب الرجوع عنه .

وفي سنة « ١٧٤٨ » عرف روسو مدام « دبناي » . أحدث التعارف بينهما المسيو « فرانكي » وزوجته وكان بينهما وبين هاته السيدة صلة متينة . وكانت مدام « دبناي » موسيقية قادرة . لذلك ولحسن علاقة روسو بدمام فرانكي بدأ شي من الود بينه وبين صاحبه الجديدة وسهل له ذلك طريق معرفة الكوميتس « هودتو » وأن تخاطبه طويلاً ليلة زفافها .

ألا يرى القارئ غريباً أن ينتقل روسو من عند رفيقته تريزلفاسير وهي على ما عرف من بله وجهل ومن بين أخواتها وأمها وكلهم وضع حقيبر فيذهب إلى بيت السيدات « دبناي » و « هودتو » و « بنزفال » و « دوين » ومثيلتين من العظيمات والكبيرات . ثم ألا يرى غريباً كذلك أن يتصل به بعضهن حتى يتركن في حياته أثراً غير ضئيل وهن يعلمن أنه ذلك المتشرد الذي قطع كل شبيته متنقلاً كما يعلمن أنه قضى شطراً منها عشيقاً لدمام دفارانس ؟

فهل سر ذلك كله أن الشاب الذي يصل باريس بطلعة وسيمة ومواهب واستعداد واثق دائماً من أن يجد القبول الحسن ؟ . . قد يكون ذلك . ولكن الذي لا شك فيه أن هذه الثقة إنما خلقها حال الجمعية الفرنسية في ذلك العصر . وإنا لنرى واجباً أن نشرحها بعض الشيء حتى يكون لنا بها بعض الدراية والعلم فنتبع روسو في حركاته الفكرية والكتابية التي هو مقدم عليها .

كانت فرنسا في القرن السابع عشر مثال الملكية المستبدة المطلقة السلطة . فكان الشعب صغراً لا وجود له ، وكان لويس الرابع عشر كل شيء إليه يرجع الأمر والنهي وعنه تصدر كل حركة من حركات الحياة في البلاد . ولقد كان من العظمة بحيث أصبحت عبادته الصورة البارزة للإحساس الأمي . وكان الناس يقدسونه ويعتبرون فيه الحافظ على فرنسا ثروتها وعظمتها ومجدها .

ولما كانت الطبقات العالية من الأشراف هي التي تشغل عادة إلى جانب الملك بأمر المصلحة العامة وكان لويس قد أغناها عن هذا الاشتغال باستثاره بالسلطة فقد تيسر لأهلها فراغ من وقتهم لم يجدوا ما يملؤونه به إلا التقرب

والزلى للملكهم العظيم . فكان الواحد منهم ينتظر على باب غرفة الملك بلا ضجر ولا ملال من الصباح إلى المساء ، ويحس بأعظم السرور إن هو صادفته منه نظرة ود أو ابتسامة عطف . والملك فى عظمتة لا يوجد بشىء من هذا إلا على من يخصهم بالقرى . لذلك فلم يكن ليصد الشريف عن الوصول إلى هذا المقام اعتبار من الاعتبارات . فهو يتقرب لكل شخص يرى فى تقربه ما يقربه إلى الملك . يتقرب لخدام الملك كما يتقرب لوزيره ويتقرب لمعشوقاته ولوصائف معشوقاته بل ولخدمهن إن أحوجه الأمر . ويبن ما يرسل ذلك من الصغار إلى النفس وما يعودها عليه من النفاق والضعفة .

وكان لويس متديناً فكان كل شعبه متديناً . كان الكتاب والعلماء والفلاسفة متدينين . وكان كل منهم يخص مواهبه ليعلى من شأن الكتلكة وليزيد فى عظمة دين الملك العظيم . فصرف بوسويه وفنون وأصراهما كل قوتهم وبلاغتهم لإظهار عظمة الكتلكة وقوتها ، وكان الأدب الدينى قوام أمهات كتب النشر كما كانت الفصاحة الدينية هى فصاحة كل ذلك العصر . ولم يتعرض أحد مطلقاً للنظر فى قواعد الإيمان ولا ارتفع صوت لمهاجمة سلطان الكنيسة الزمنى . بل كانت كتابات الفلاسفة إنما تسعى لتزيد فى قوة كتابات الأدباء . وديكارت الذى بدأ مذهبه بنقض كل مذهب وبيان كل شىء على أساس التفكير من جديد إنما كان يرمى ليصل إلى إثبات الإله ولا يتعرض بشىء للكنيسة .

وكان للصالونات التى أقامتها يومئذ مدام دمتنون ومن حذا حذوها من السيدات أثر هائل على الأدب . فقد كان هم الشعراء إرضاء الملك . ورضا الملك يستلزم رضا صاحباته ومن حولن . على أن سلطة الصالونات لم تكن مستبدة ولم يتأثر بها أجمل ما فى أدب راسين وكرفى وغيرهما . ولم يكن أدب كبار الكتاب جميعاً أدباً دعياً ، بل كان أدباً إنشائياً ( كلاسيك ) . والذوق الإنشائى هو ما جمع بين التعقل الوضعى والإحساس بالجمال .

ومن مميزات هذا الذوق الإنشائى أخذه بالعموميات وعدم ميله للدخول فى الدقائق أو اجتلاء الأحوال الغامضة والمسائل الاستثنائية والاكتفاء بالنتائج التى ينتجها المنطق البحت . ومن هنا جاء أن أشخاص روايات القرن السابع عشر على

عظمتهم العقلية لا يمثلون أحياء متحركة وإنما هم يمثلون أفكاراً بحثت لها ميزة الزهابة والجيئة معهم على المسرح .

على أن عظمة القرن السابع عشر كانت تتآكل كثرة ما كانت تنفق من الجهود ، وملكه العظيم كان يرهق الأمة وكأنه كان يظنها تنتهي بنهايته فما أزفت ساعة لويس حتى كانت فرنسا منهوكة بالحروب والدين والترف وحتى كانت الكنيسة قد بدأ يداخلها الضعف . والغريب أن ما كان سبب عظمتها بالأمس هو الذى أعده لها خصومها ليكون وسيلة القضاء عليها . فقد استفادت اللادينية من مناقشات بوسويه وفنون واتخذتها سلماً للطعن فى قضايا الدين ، وسرعان ما ارتاحت النفوس إلى الفكاك مما كانت فيه من أسر وانضمت إلى قولتير وطائفته لتتنفس بعيداً عن ذلك النفاق الدائم الذى اضطرها استبداد لويس للالتجاء إليه خوف غضبه ورجاء رضاه .

وتدهور السلطة المستبدة واندهار سلطان الكنيسة المطلق ابتداء خذلان طائفة الأشراف التى كانت تعيش فى كنفهما . وبذلك ابتداء القضاء المطلق على جميع قوى الحكم القديم .

وجاء القرن الثامن عشر معادياً للدين قاتلاً لكل العقائد نافية لكل العادات السابقة نائراً ضد سلطة الفرد مطالباً بحال أحسن .

غير أن البناء الاجتماعى لما يخر صرحه . والنظام الذى كانت تسير عليه فرنسا القرن السابع عشر ورثته فرنسا التى خلفتها وتوسعت فيه . وبدل أن تقتصر الصالونات على جماعة سيدات البلاط فقد امتدت إلى مدام ديرنفال ومدام دوين ومدام دبناي وأضرابهن من اللواتى أحلتهن السعة مكاناً أطلق لهن الحرية فى هذا النوع من الحياة . ورجع كتاب هذا القرن الجديد إلى هاته الصالونات وتركوا البلاط وما معه بعد أن خلفه لويس العظيم خلواً من العظمة .

إلى هذا الوسط غير المتدين الطاعن على العادات والعقائد ، المدعى لنفسه من غير أن يكون من البلاط أخلاق أهل البلاط ، المتطلع إلى جهة العلم بدل أن يخضع إلى سلطان الكنيسة ذهب جان جاك روسو البروتستانتى الأصل ، الكاثوليكي المنقلب ، المتوقد الخيال ، الميال للوحدة ، العاشق للطبيعة البكر ، العاجز عن الظهور فى الجمعيات ، المصاب بالآفات والعلل . وصل فوجد من حسن الاستقبال

ما أذهب عن نفسه بعضاً مما كان بها من اليأس وفتح أمامه متنفساً من الأمل في الحياة .

ولكنه على تقدمه إلى الأربعين من سنى حياته لم يكن قد اطمأن إلى نوع خاص من أنواع العيش . وكأن نفسه القلقة لم تكن لترضى بالنجاح الجزئى الذى نالته في الموسيقى وفي التعليم فكانت دائبة تطلب الكمال ولكنها لم تكن قد وفقت إليه بعد .

تركنا روسو عند مدام دبناي ومدام هودتو . وهناك زادت صلته بصاحبه القديم ديدرو وقويت رابطتهما . كذلك عرف (كندياك) وصار يصحبهما كل أسبوع لتناول طعام الغداء في مطعم (البانيه فليرى) مجتمع الشعراء والكتاب . ولقد بلغت الصداقة فيما بينه وبين ديدرو حتى اتفقا على إصدار صحيفة باسم Le Persifleur أى الساخر . لكنهما لم يظهرها منها إلا العدد الأول . وسبب ذلك أن ديدرو ودالمير اتفقا على القيام بعمل (الانسكلويديا) فشغل ديدرو بها عن صحيفته . وشغل روسو كذلك حيث كلفه بكتابة القسم الخاص بالموسيقى .

على أن هذا العمل مع الأسف لم يستمر . فإن ديدرو نشر (كلمة عن العمى لفائدة من يبصرون) ضمنها ما جرح مدام (ديرى دسان مور) والمسيو (ريومير) فأخذ وحبس في سجن فانسن .

وكانت كلمة روسو عن الموسيقى آخر ما كتبه ولم ينل أى شهرة . على أن إكثاره من الكتابة مدة إقامته ببيريس أعاد إليه ما علق بذهنه من قراءاته الطويلة السابقة وأعد له لينال المكان الذى احتله في عالم الأدب من بعد ذلك .

## ٤

لما اعتقل ديدرو في حصن فانسن عكف روسو على منازل صويجباته يشتغل معهن بالموسيقى ويستفيد منهن معرفة أصدقاء جديدين . ثم انتقل من باريس إلى ( فثناي سوربوا ) مع البارون دلايلنيير وفيها عرف الألمانيين ( كلبفل ) و ( جرم ) وظلت جماعتهم زمناً متمتعة في القصر الجميل الذي نزلوا به .

فدما رجع إلى باريس علم أن صديقه ديدرو قد سمح له بالانتقال من الحصن إلى حديقته . وبأن يستقبل أصدقاءه . فجعل يذهب إليه وحيداً أحياناً . ومع زوجة ديدرو أحياناً أخرى .

ولما كان صيف تلك السنة ( ١٧٤٩ ) قنظاً ولم يكن روسو في حال من السعة تسمح له بالذهاب في عربة فقد كان يأخذ معه كتاباً يتسلى بقراءه في أثناء الطريق . فإذا بدا عليه التعب جلس في ظل شجرة حتى تعاوده قواه فيعاود المسير . وفيما هو في بعض هذه الرحلات وقع نظره في مجلّة ( المركير دفرانس ) على مسألة طرحها أكاديمية ديجون لتكون موضع السبق لمن يطمع من الكتاب في جازتها السنوية . هذه المسألة هي ما إذا كان من أثر العلوم والفنون أن أفسدت الأخلاق أو أصلحتها .

« وساعة قرأت هذه المسألة رأيت عالماً آخر وأصبحت رجلاً آخر . . فلما وصلت إلى فانسن كنت في حالة من التيهج تكاد تصل إلى الدور . ولاحظ ديدرو ذلك فأخذته بالسب وقرأت عليه ما مر بخاطري وهه كسته بالقلم البرصاص تحت شجرة من أشجار البلوط . فحضى على استكمال أفكارى والدخول في المسابقة . » ولقد قمت بالعمل في كتابة هذا « الخطاب » على طريقة غريبة اتبعتها بعد ذلك في معظم كتاباتى . فلقد خصصت له ساعات أرقى وكنت أفكر فيه في سربرى وعميوى مغمضة . فإذا ما نضجت الفكرة في رأسى ووصلت إلى حد الرضا عنها أودعتها ذاكرتى منتظراً الوقت الذى أضعها فيه على الورق . لكن ما كان يضيع من الزمن في قيامى وفي ارتداء ملابسى كان كافياً لينسبنى كل شيء .

فإذا جلست إلى أوراقي لم يبق في رأسي قليل مما كان من قبل فيها . فاتخذت مدام لفاسير سكرتيراً لي وجعلت أُمليها حين وصولها لتوقد ناراً في الصباح ما أتممته في أثناء الليل . ولقد أنجذنتني هذه الطريقة التي اتبعت زمناً طويلاً من خطر النسيان » .

أما الأفكار التي أخبر بها صديقه ديدرو فحضره على استكمالها فهي الأفكار التي نادى بها من بعد ذلك طول أيام حياته وأساسها الطعن على الجمعية المدنية والنداء للرجوع إلى الحالة الطبيعية واعتبار العلوم والفنون مصائب وأهوالاً انصبت على رأس الإنسانية .

ولسنا نعجب مطلقاً أن نرى روسو بعد الذي عرفناه عنه يختار هذا الطريق طريق الطعن على العلوم والفنون . فإن العلوم والفنون أثر من آثار الاجتماع بل هي زينته وتاجه . وروسولم يكن ليصادف أى نجاح في الاجتماع . والفنون ومنها الموسيقى مصدر عظمة وثروة لكثير من الناس . وقد لاحظنا أن روسو صادفه النحس المستمر فيها . والترف الذي كان من مظاهر الحياة يومئذ كان منظوراً إليه بعين غير طيبة من كثيرين اعتقدوه مصدراً لشقاء بلادهم ، ولكنهم ضعفوا عن إظهار آرائهم أمام رأى عام ميال بكلمة للترف . ولم يكن روسو وهو الأجنبي عن فرنسا في ذلك الموقف ولا كان يهمه مع ما اشتهر من غرابته ومخالفته للناس في كل أموره ما يطعن به الناس عليه . لذلك كان هو الرجل المعين للقيام بالصيحة في وجه الترف وما أنتجه من العلوم والفنون .

هذا هو اعتقادنا وهو اعتقاد كثير من الكتاب . مع ذلك فقد روى ديدرو بعد أن تمت القطيعة بينه وبين جان جاك أنه هو الذي أوحى بالفكرة لروسو حينما جاءه في فانسن واستشاره عن الطريق الذي يختار . وشارك ديدرو في هذا القول جماعة من خصوم جان جاك .

ولقد عارض روسو الرجل الطبيعي المسترسل مع فطرته السعيد في جهله القانع من حياته بما حوله بالمتمددين المترف المدعى لنفسه التفوق في العلوم والفنون ، وقرر « أن نفوسنا تفسد بمقدار تقدم علومنا وفنوننا إلى جهة الكمال » والتجأ لإثبات ذلك إلى التاريخ متخذاً المثل من المصريين واليونان والرومان وغيرهم وما كان هؤلاء عليه من الشجاعة والكرم والنجدة والرقى في كل ما يتعلق بأخلاقهم .

ثم استظهر ما عليه أهل زمانه المنغمسين في الشهوات المترعين في دست الملاذ الملوثين في حمأة النهب وأدران التمددين « وكذلك كان الترف والانحلال والرق في كل زمان الجزاء الأوفى للمجهودات المتعطرة التي صرفناها للخروج من الجهالة السعيدة التي اختارها لنا العقل الأزلي » .

والذي لا ريب فيه أن ابن الطبيعة الذي يدعو إليه روسو ويضربه مثلاً أعلى للإنسان إنما هو روسو الفطري الشهواني الأناني الضعيف العاجز عن أن يتبع قانوناً سوى ما يوحى له به قلبه من الإلهام الوقتي . هو ذلك المتشدد القديم القليل المعرفة بالحياة المدنية البالغ من الخجل متى درجاته . والجمعية على النظام الطبيعي إنما هي تلك الجمعية التي رآها في قرى سويسرا والتي هي متى ما يتصوره خيال رجل من العامة عدو للترف شديد الإعجاب بحياته البسيطة التي يستهين بها الرأي العام المدني ويحكم عليها بالانحطاط .

ولقد عزاروسو العلوم في أصولها إلى نقائص الإنسان . « فأصل الفلك الطيرة . وأصل الفصاحة الطمع والكراهية والنفاق والكذب ، وأصل الهندسة البخل ، وأصل الطبيعة الطلعة الكاذبة ، وأصل كل العلوم والأخلاق التي ترتبت عليها إنما هو الكبرياء الإنسانية » .

وكذلك كان من أثر العلوم والفنون إضاعة الوقت وزيادة الترف زيادة نشأ عنها ضياع الفضائل المجيدة التي كانت شائعة بين الأمم القديمة ، كذلك كان من أثرها ضعف النفوس وخمود روح الحرية فيها .

« انظروا إلى مصر مدرسة العالم ذات الجو الخصب ولسم الصافية ، انظروا إلى هذه المملكة المجيدة التي خرج منها سيزوستريس ليحكم العالم . فإنها ما لبثت أن أصبحت أم العلوم والفنون حتى أغار عليها قبيز ثم اليونان ثم الرومان ثم العرب والترك أخيراً » .

« وانظروا إلى اليونان التي كانت من قبل مسكن الأبطال الذين هزوا آسيا مرتين . مرة حين شنت فارس الغارة على طروادة والثانية حين غزا اليونان الآسيويين في عقر دارهم ولم تكن الآداب قد أفسدت بعد نفوس الغزاة . لكن تقدم الفنون وتحلل الأخلاق ونير المقدونيين تعاقبت كلها فلم تكسب اليونان من ثورتها بعدما تورطت في علمها وشهواتها وعبوديتها إلا تغير المتحكمين في أمرنا

وعجزت كل بلاعة ديموستين عن أن تجدد الحياة في جسم هزله اترف وأنهكته  
الفنون» .

هذا كان شأن مصر وشأن اليونان . تدركت إلى المذلة والهوان على سلم العلم  
والفن بعد أن كانت في جهالتها الطبيعية السعيدة جالسة على عرش المجد والأنفة .  
دب إلى جسمها القوى الصحيح مرض هو أقتل الأمراض للجمعيات . مرض  
التفكير . وساقها نحس الطالع أن تشعر بحاجات العقل بعد أن كان كل ههما  
مقصوراً على حاجات الجسد . ومظهر حاجات العقل العلوم والفنون والآداب .  
وهذه وإن تك أقل استبداداً من مظاهر القوة التي تحفظ على الجسوم أمنها  
وسعادتها فإنها « تنشر باقات الزهر على ما ينقل الناس من أغلال الحديد وتخدم فيه  
عاطفة الحرية التي ولدوا بها وتجب إليهم رقهم وتجعل منهم ما يسمونه الشعوب  
المنظمة » .

وقد أصاب روما وأصاب القسطنطينية وأصاب كل أمة اندست إليها جرائم  
العداء ولندن ما أصاب مصر وما أصاب اليونان . بل لو جاء عظماء رجال هذه الأمم  
يوم كانت العظمة الحقة في البقاء في أحضان الطبيعة الجاهلة ورأوا ما لحق بأهل  
بلادهم لولوا عنها وجوههم ثم لولوا مدبرين هما ونكداً .

« إيه فابريوسوس . ماذا كان يجول بروحك العظيمة لو بعثك نكد الطالع مرة  
أخرى إلى الحياة ورأيت الصورة البديعة الحاضرة لروما التي أنجأها قديماً  
دراعتك وخلد لها وقار اسمك من الفخار أكثر مما أقامت لها كل غزواتها من المجد؟  
إنك كنت لا شك تقول : يا آلهة السماء . ماذا أصاب هذه السقوف وتلك المنازل  
الريفية التي كانت مستقر التواضع والفضيلة في الماضي . أي فخامة متعوسة  
عقبت البساطة الرومانية . ما تلك اللغة الغريبة عنا وما هذه الأخلاق المختنة .  
أي معنى لهذه النصب والتماثيل والصور والقصور . ماذا صنعتم ياهؤلاء المجانين  
صنعتهم وأنتم سادة الأمم عبيد الرجال الطاشين الذين أخضعتم . أهم الثرثارون  
الذين يحكمونكم . وهل ليثرى البناءون والنقاشون والسحاتون والمهرجون ورويتم  
بدمائكم اليونان وآسيا . وهل تكون آثار قرطاجنة ملهى لزمارة ؟ ! ألا عجلوا أيها  
لرومانيون فاهدموا هذه المسارح وكسروا تلك النصب وحرقوا هذه الصور واطردوا  
أولئك العبيد الذين يذلونكم وتفسد نفوسكم فنونهم المتعوسة . ذروا غير أيديكم



أمام الإنسانية ضد الآداب والفنون والعلوم والجمعية نفسها . . ولم يكن الاشمئزاز منه عاماً كما قيل بل الذى كان عاماً هو الإعجاب به ونوع من الوجع منه .  
 ونال خطاب روسو جائزة أكاديمية ديجون وأصبح روسو من الرجال الذين يشار إليهم بالبنان . وانتشر خطابه وقرأه الناس فى جمعياتهم ولقى منهم ما قدمنا من الإعجاب . لكن أصواتاً أخرى ارتفعت ضده مظهرة ما فيه من الدعوة إلى الخراب والدمار وما يترتب على الأخذ به من الرجوع بالإنسانية إلى البربرية والوحشية . ومن النكات الدقيقة التى طعن بها عليه فولتير قوله : « لو أن الناس اتبعوا قول هذا الصائح لسرهم أن يمشوا على أربع » . ومن وجهوا إليه الطعن المر والنقد الشديد ستانسلاس منك سردينا . والمسيو بورد صديق روسو أيام مقامه بليون ، والأستاذ جوتيه وغيرهم . وكان أساس مطاعنهم جميعاً تناقض ما فى الخطاب مع فكرة التقدم تناقضاً بيناً .

والحقيقة أن روسو لم يقصد الرجوع بالناس إلى ما يشير إليه خطابه . ولكنه رأى الإنسانية الوضيعة من جماعة العمال وأضرابهم تبعث صيحات ألم عرف مضاضتها لكثرة ما أصابه من مثلها . فخيّل له أن ما يشاهد من ترف الأغنياء واصلفهم إنما هو المصدر الوحيد لكل هذه الآلام . وإن ذلك الترف والصلف إنما أقامته العلوم والفنون فاندفع منادياً ضدها طالباً زوالها رجاء زوال هذه الآلام والمصائب من غير تمكيز فى وضع خطة لذلك بل ولا فى إمكانه . ولما لم يكن يقصد هذه الرجعة إلى الوراء أحسّ بدقة المركز وحرجه حين وجهت إليه انتقادات خصومه . أترأه يصر على طلب العودة إلى الحالة الطبيعية وإعدام آثار تقدم الإنسانية ؟ ألا لئن فعل ذلك لرماه الناس طراً بالجنون ولحسبوا فى صحبته الأولى ادعاء كاذباً أكبر كثيراً مما تعزوه هى للعلوم والفنون من النقائص أينكص على عقبه ويرجع عن رأيه وينزل إلى حالته الأولى حالة الموسيقى المجهول ؟ وأين ذلك من خلق جان جاك المملوء كبراً وأناية وغروراً . أيسكت أمام النقاد ؟ إن مركزه الجديد يتنافى مع السكوت . فعاد إلى نفسه ورجع يقرب موضوعه ويمعن الفكرة فيه باحثاً عن طريق للخلاص من الورطة التى أرادها له خصومه . ونقد استطاع ذلك بدقة ومهارة فاقت حرارته وثورته فى خطابه الأول وتمكن من تخفيف ما كان عنده من غلواء من غير أن يبين ذلك عليه ، كما استطاع الإحاطة بكل

فكرة من أفكاره وتحديدها . قال في رده على ستانسلاس : « ثم ماذا . أفيجب علينا أن نلغى من الأشياء كل ما ساء استعماله ؟ أجيب من غير تردد : نعم وبلا شك يجب إلغاء كل ما لم يكن مفيداً وكل ما كان لإغراق فيه أكثر ضرراً مما يأتي به استعماله من الفائدة ، ولكن حذار أن نستنتج مما تقدم ما يوجب علينا حالاً أن نحرق كل المكاتب وأن نخرب كل المدارس الجامعة الأنيب فإنا إن فعلنا ذلك رددنا أوروباً إلى الهمجية من غير أن تكسب الأخلاق من وراء فعلتنا شيئاً » .

إذن فلتبق المكاتب والمدارس الجامعة أى فلتبق العلوم والفنون . وإذن فالطاعن الأول لم يبق لها مكان . هذا ما يوحي به المنطق ، ولكن وسو لا يستطيع التقهقر إلى هذا الحد ، بل هو يعارض نظريته ويقصد إقامتها وإحيائها ، وما في أسلوبه من الجرأة والقوة يساعده على التغلب على خصومه .

وفيما هو في تفكيراته جاءت أفكار جديدة رسمت أمامه الطريق إلى العظمة الكتابية التي تنتظره . وأعظم هذه الأفكار أثراً في رسم الطريق فكرة وجوب المساواة لإمكان السعادة . قال في رده على ستانسلاس أيضاً :

« ربما قيل إن الترف والشرف ليس أصلهما العلم ولكنهما يرجعان في كل زمان ومكان إلى الثروة . وما قلت إن أصل الترف العلم . ولكني قمت إنهما ولداً معاً وإن أحدهما لا يعيش إلا مع الآخر . وإليك كيف رتب المسألة : فالأصل الأول المشرف هو عدم المساواة ، وعن عدم المساواة تنشأ الثروة ، والثروة تولد الترف والفراغ ، والترف أصل وجود الفنون والفراغ أصل وجود العلوم . ودخل في يقينه أن عدم المساواة هي مصدر كل شر فردد الفكرة في رده كما وضعها أساساً لخطاب كتبه فيما بعد عنهما . ومن بدع ترديده ما قوله رداً على كلمة بورد : إن الصناعات التي تقدم مواد الترف هي مصدر من مصادر الحياة لكثير من العمال قال روسو :

« يطعم الترف مائة فقير في مدنتنا ويكون سبباً في هلاك مائة ألف في القرى . وما يتداوله الأغنياء والفنانون من المال لوفاء ملاذهم مضيق لما يقيم أود عامل لا يجد رداء لأن غيره يلبس الذهب ، وأما ما يذهب ضياعاً من المواد المستعمنة في غذاء هؤلاء الناس فيكفي وحده لجعل الترف بشعاً أمام الإنسانية . . . . .

التوايل في طعامنا لا يجد كثير من المرضى مرقاً . ولكي تكون الخمرور على موائدنا لا يشرب الفلاح إلا قراحاً . ولكي نصلح من شعرنا لا نجد الفقير لقمة » . وكذلك انتصر روسو على خصومه ، واستطاع أن يضم إليه العدد الأوفى من القراء ، وتربع في دست عظمته ونظر إلى نفسه وفكر في أمره فخيّل له أن من الواجب إدخال التغيير على حاله .

على أن روسو نفسه قد اعترف بأن خطابه لم يكن من المتانة والدقة بحيث يستحق ما ناله من التحييد والإعجاب . وهذا اعتراف حق . فإن الخطاب فضلاً عن تناقضه المنطقي لم يثر مسألة جديدة ولم يخرج إلى عالم الأدب فكرة نادرة . فقد كانت الدعوة للرجوع إلى الحالة الطبيعية وللزوع عن الترف المفسد منتشرة تناولتها أفلام عدة . فجاء بها مونتسكيو في ( مكاتيبه الفارسية ) واستظهرها ماريفو في ( جزيرة الرق وجزيرة العقل ) وكتب عنها بوفون وغيره وكان جميع أولئك يتزعون إن الطعن على شيوع الترف شيوعاً مضعفاً للنفوس مفسداً للأخلاق . على ذلك فلم يكن من جديد فيما كتب روسو إلا الصيغة الكتابية وإلا الشطط في الاستنتاج . على أن الفكرة إن صحت هي بالغة في التطرف . فإن ما يفسد الترف لا يتعدى طبقة خاصة من أغنياء أهل المدن . أما سكان القرى ومتوسطو الثروة من أهل المدن فلم يفسد عليهم ترف شيئاً لأنهم يحلّون بين ظهرهم . وهؤلاء أفادتهم العلوم والحنون أجل الفائدة ويسرت لهم سبيل السعادة بما فتحت لهم من كنوز الأرض وجزائرها . وبما أوضحت لهم مافي الطبيعة من جمال وإبداع فهل من أجل هذه الأقلية المترفة الفاسدة يقوم إنسان في وجه العلم والفن وكل ما أبدع العقل الإنساني تلك القيامة السوداء .

لكن ما قدمنا من تطلع الوسط مثل هذه الكتابات وما امتاز به أسلوب روسو من الرنة الخاصة هو الذي استلقت الأنظار إلى خطابه واستفز النفوس لمناصرته .

كان روسو في أثناء نظر خطابه أمامه أكاديمية ديجون مهمما لما رآه على ( تيرينغناسي ) من آثار الحمل . ففكر هذه المرة في طريقة أقرب للجد بشأن ذلك الابن المنتظر وقد أصبح مركزه الجديد بحيث يسمح له أن يكون أباً وأن يرى أبناءه . لكن الغريب أن تصميمه بعد التفكير الطويل انتهى إلى أن يرسل بالبلد الجديد

أيضاً إلى ملجأ اللقطاء . وحينئذ هذه المرة أن إرسال أبنائه للملاجئ العامة لتخرجهم عمالاً وفلاحين خير لهم من البقاء معه لينالهم في مستقبل حياتهم ما ناله من قبل من الشقاء والتعس ، ولتكون غايتهم التشرذم والبؤس . ومهما يكن من وهن هذه الحججة أمام نظر الكثيرين فإن ما عرفناه عن حياة روسو وأخلاقه يجعلنا نميل لتصديقه في إمكان تأثير هذا السبب عليه حتى ليحمله على ارتكاب عمل بعده غيره جناية ولا يعده هو شيئاً مذكوراً .

وفي ذلك الحين أراد المسيو فرانكي أن يجد لروسو عملاً معرض عليه أن يشتغل كصراف في المالية . وبعد تجارب لم تظهر معها أى كفاية له في هذا العمل تركه منهوئاً مريضاً ولزم فراشه ، فلما أبل من مرضه راجعته فكرة تغيير حاله ورأى أن يهجر ما يسعى إليه الناس من ثروة وعظمة وأن يرجع إلى ما تقتضيه الحال الطبيعية من الفقر والبساطة ، وتسلمت هذه الفكرة على نفسه واحتلت مخيلته واستولت عليه وكثر ورودها وتحكمها حتى عجز عن مقاومتها . فبدأ بتغيير زيه وترك ما كان يلبسه أهل زمانه وارتدى رداء بسيطاً فازداد بذلك غرابة وازداد القوم به إعجاباً ! « وأراد الناس معرفة ذلك الرجل الغريب الذى لا يبحث عن أحد ولا يهتم لشيء إلا أن يعيش حراً سعيداً على ما يريد فكان ما أرادوا كافياً ليمنع عليه طريق السعادة ، وبقيت غرفتي يملؤها جماعة الذين كانوا يجيئون بحجج مختلفة فيغتصبون وقتي منى ، ولجأت السيدات إلى حيل لا آخر لها لأكون على موائدهم في العشاء . . . وهناك أحسست أنه ليس من السهل أن يكون الإنسان فقيراً مستقلاً على نحو ما كنت أتصور » .

ولما ترك الوظيفة التي أراد فرانكي أن يشغله بها وفكر في عمل يعيش منه حراً مستقلاً متبعاً مبادئه لجأ إلى نقل الموسيقى . ولقد عانى هذه الحرفة من قبل وأعانتة على الحياة سنين طويلاً فجعل منها شغله من يومه هذا إلى آخر حياته .

فلما عرف الناس عنه ذلك تباروا جميعاً وتبارت السيدات خصوصاً يريدون اقتناء نوت موسيقية من قلمه مما زاد في عمنه حتى أصبحت كثرة الزيارات مطنة له عن القيام به وعن إتقانه . ففكر في الابتعاد زماناً عن باريس وذهب إلى مركز زيس أمضى فيها وقتاً جعله على قصره يحس بما يضيع عليه من الوقت في العاصمة . لهذا فلما دعاه صديقه وقريبه المسيو ( موسار ) للذهاب عنده في ضاحية باسى لم يجد من ذلك

بأساً . ولا رأى فيه أية غضاضة . وهناك قضى وقته بين نقل الموسيقى وعملها وترتيبها .

وفيما هو يتحدث مع مضيفه عن الموسيقى التي رآها مما في إيطاليا خطر له أن يضع (أوبرا) على نسق الموسيقى الإيطالية ، وأمضى ليلته في ترتيبها . وعجيب أن تطرأ هذه الفكرة على مؤلف الخطاب الطاعن على العلوم والفنون والداعى للرجوع إلى الطبيعة ، والأعجب أن تطرأ له بعد ما بدأ في الخروج على الناس والرجوع في ملبسه إلى وحي فطرته . ولكن روسو لم يكن قد آمن بعد بفكرته . بل كان لا يزال الموسيقى المتطلع للعظمة الروائية الغابط من ينالون إعجاب المتفرجين في مسارح التمثيل وملاهي الموسيقى ، مما منع عليه أن يلاحظ مناقضته نفسه بنفسه . فانكب على عمله وأتمه وأخرجه للناس في قليل من الزمان . وأسبى روايته هذه (آلة القرية) وضمنها مناظر ريفية كلها تدور حول ما يوحي به عجوز يدعى لنفسه السحر إلى بطللة الرواية التي تستغوى بطلها باستشارة الغيرة عنده . وتتخلل فصول الرواية مراقص ريفية تهزها موسيقى تسيل رقة وجمالا ، فلما تمت استعان بصديقه (دكلو) لتمثيل على مسرح الأوبرا . ومثلت فلكيت أكبر الإعجاب بها والتصفيق لها .

ثم مثلت بعد ذلك أمام البلاط الملكي في فيرنبير . وكان روسو يومئذ هناك في رداءه الجديد . وقد أسدل ذقنه وأرخى شعره ولم يرض بتغيير شيء من زيه ليناسب المكان الذي حل فيه . وأنجس بهذا الشكل المستوحش بين سيدات قد ليسن ونس من معهن من الرجال أهى الحلل وأفخرها .

سكن ما نالته روايته من عظيم الإعجاب وكبير الثناء ألهاه عن حاله .

وإلى القارئ كلمة من اعترافاته عما خالج نفسه في هاته اللحظة :

« سمعت حين همس نساء تصورتهن الملائكة وتقوك كل منهن لصاحبها - إن هذا بديع أمر ليست فيه نعمة إلا تصل إلى القلب -- فبلغ في السرور أن استثرت شجر كين هاتيك الرقيقات حتى استهل مدمعي . . وتركت نفسي في هذه اللحظة القصيرة أتذوق لذة عظمتي وأتذوقها بكامل معناها . . وإن الذين رأوا تمثيل يومئذ هم لا يذكرونه فقد ترك من الأثر ما لا مثال له . »

وإن يكن هذا النجاح الباهر مقصوراً على السيدات . فقد بعث الدوق

(دمون) على أثره يخبر روسو أنه سيقدمه غداً الغد إلى الملك على أمل أن يجعل الملك له في خزانته رزقاً .

« أفيظن أحد أن الليلة التي تلت ذلك اليوم البديع كانت ليلة هم وشجن . ذلك أنه قد عرضت فكرة تقدمي إلى الملك تصورت حاجتي إلى الخروج حاجة المتني في أثناء التمثيل ، وقد يمكن أن تضايقتني وأنا في غرف الملك بين العظماء الذين ينتظرون مرور جلالاته .

« ثم تصورت نفسي أمام الملك وقد قدمت لجلالاته فتنازل فوقف وخطبني ، وهنا تجب الدقة وحضور الذهن للإجابة ، أفتركتني ذلك الخجل التعيس الذي عندي والذي يجعلني أختلط أمام أقل الناس ممن لا أعرف وأنا أمام ملك فرنسا فأوفق لاختيار اللفظ المناسب في تلك اللحظة » .

لهذا رأى من الأصوب أن يرفض المقابلة . وإذا كان في الرفض ما يضع عليه ذلك الرزق ففيه أيضاً ما يوفر عليه حريته وينجيه من عبء ربما ناء به وربما اضطر معه لترك كثير من مبادئه . ورفض فعلاً ورجع إلى باريس مكلاً بالفخار منظوراً إليه بعين الإعجاب ممن لا يعرفونه وبعين الغبطة من بعض أصحابه وبعين الحسد من البعض . فلما استحس هذا الحسد غلبته طبيعته الأنانية وابتدأ يظن الظنون . ومن ثمت نشأت عنده فكرة لازمه بقية عمره ، أن أصحابه يريدون الوقعة به ويرومون هلاكه .

ومثلت روايته من بعد ذلك في باريس وكان نجاحها باهراً . هنالك سمح لنفسه أن يشترك مع (جرم) في الطعن على الموسيقى الفرنسية مما أغضب الكثيرين عليه .

ولما أحس بمكانته في عالم الأدب والموسيقى دفع روايته القديمة (ناريسيس) إلى (التياترو الفرنسي) ومثلت من غير أن يظهر عليها اسمه فلم تلق أى نجاح . وفيها هو يتذوق في هذه اللحظات اللذة والألم والانتصار والخزيمة طرحت أكاديمية ديجون من جديد لمسابقة الكتاب المسألة الآتية : ما هي أصول عدم المساواة بين الناس ؟ وهل يرضاه القانون الطبيعي ؟

وظاهر أن أكاديمية ديجون إنما وضعت هذه المسألة لروسو صاحبها وبطلها . فقد كانت نهد على ستانسلاس ويرد مملوءة حسية وحساسة ضد عدم المساواة .

وروسو هو بطل القانون الطبيعي . فمادام قد أعلى شأن المسألة الأولى فهو الذى ينتظر ليعلى شأن المسألة الثانية .

وأحس روسو بذلك واقتطع من وقته جوابه . ولكنه يجيب على المسألة من طريق آخر ، ويضع للخطاب الذى يكتبه عنها عنواناً آخر ، ويكتبه على ما سبى القارئ بحرارة وأسلوب ثورى تنطقُ أمامهما حرارة وقوة الخطاب الأول . ولذلك كله لم تعطه الأكاديمية جائزتها .

العلوم والفنون مفسد للأخلاق وأثر من آثار نقائص بنى الإنسان ونتيجة لكبرياتهم الفارغة . وإنما جاء شقاؤهم بسببها وحين خرجوا من جهالتهم الطبيعية . ولولاها ولولا ما جاءت به من الثروة وما أنتجته الثروة من عدم المساواة لما كان التعس الذى يتمرغ فيه ألوف بنى الإنسان . فإذا أراد الناس السعادة فليرجعوا إلى جنان الطبيعة .

هذه هى الأفكار التى عرضها روسو فى خطابه الأول . ولقد رأى القارئ غلوه فى طريقة عرضها أول الأمر وتعديله لها فى ردوده على من تعرض لنقده . وتند جاء فى بعض هذه الردود قوله : إني أعتقد أن الإنسان طيب بطبعه .

والطبع والفطرة والسليقة كلمات طالما عرضت فى مؤلفات روسو . ومع ذلك فلم يجد أحد لها تعريفاً واضحاً على صحائف هذه المؤلفات . وكل ما أمكن استنتاجه أن روسو كان يقصد بالطبيعة أو الفطرة ما جبل عليه الرجل أول خلقه من غرائز وإحساسات . فمعنى أن الإنسان طيب بطبعه وأن السعادة ترجع للناس إذا استمعوا إلى الطبيعة هو أن السعادة ترجع لهم إذا هم تركوا كل نتائج الفكر وما أبدعه من مدنيّة وحضارة . ورجعوا إلى وحى الطبيعة الأول واتبعوا ما تدعو إليه من البساطة والسذاجة . وهذه الفكرة التى كانت غامضة فى خطاب العلوم والفنون ستكون مصدر الإشعاع فى خطابه عن عدم المساواة وأصولها ونتائجها .

عرضت أكاديمية ديجون فى سنة ١٧٥٣ مسألة أصول عدم المساواة بين الناس . ودل يقرها القانون الطبيعى ؟ فلم يكن أحد أسبق من روسو للنظر فيها والكتابة عنها كيف لا وقد أمعن فيها البحث والنظر عند كتابة ردوده عن الخطاب الأول .

قال : « ولأفكر فى هذا الموضوع الكبير مطمئناً ذهبت مع تيريز وربة البيت وصاحبة لها إلى سان جرمان وأمضيت فيها سبعة أو ثمانية أيام أعتها من أجل أيام حياتي . فكان الطقس رائعاً وقامت هاتان السيدتان بأمر النفقة وأمضت تيريز وقتها معها مسرورة وكنت أرحع أنا إليهن ساعات الطعام لأتمتع بالسرور

بينهن سروراً لا تشوبه شائبة ، أما بقية النهار فكننت أفضيه كاسياً وسط الغابة .  
وهناك بحث ووجدت صورة العصور الأولى فرسمت تاريخها مغضياً عما أحاطها  
الناس به من الأكاذيب ، وعمدت إلى رفع الستار عن طبيعة بني آدم وتبعت سير  
العصور واستظهرت الأشياء التي أفسدت هذه الطبيعة ، وأظهرت لهم بمقارنة  
الإنسان الذى صنعه الإنسان بالإنسان الطبيعى أن الأصل الحقيقى لشقائهم إنما هو  
ما يدعونه لأنفسهم من الكمال . وارتفعت نفسى وقد حفرتها هذه المشاهدات  
العالية حتى كانت على مقربة الألوهية . ومن هناك رأيت أمثالى يسترسلون تدفعهم  
عاداتهم العمياء فى طريق أغلاطهم ومصائبهم وجرائمهم فناديتهم بصوت ضعيف  
غير مسموع قائلاً : (أيها المجانين ، يا من لا تزالون تشكون من الطبيعة .  
ألا فاعلموا أن مصائبكم إنما تأتاكم منكم) « ؟

وكانت تفكيراته فى غابة سان جرمان مصدر خطابه عن عدم المساواة . لذلك  
لا نعجب إذا رأيناه صادفاً عن استقراء التاريخ مسلماً نفسه إلى خياله معتمداً  
كل الاعتماد عليه . كما لا نعجب أن نراه يفتح هذا الخطاب بقوله : « نبدأ  
باستبعاد كل الوقائع فإنها لا تمس موضوعنا ، ثم لننظر إلى ما يمكن ممارسته من  
الأبحاث فيه . ولننظر إلى ذلك لا كحقائق تاريخية ولكن كتعليلات اقتراضية  
أكثر ملاءمة لإيضاح طبيعة المسائل منها لإظهار حقيقة أصلها » : ثم يقول :  
« أيها الإنسان إليك تاريخك كما أعتقد أنى قرأته لا فى بطون الكتب التى وضعها  
أمثالك فإنهم كاذبون ولكن على صفحات الطبيعة التى لا تكذب أبداً » .

وأطلق لخياله العنان فتغلغل به فى ظلمات الماضى حتى وصل إلى حيث  
اعتقد مبدأ الإنسانية جاعلاً رائده فى هذا البحث الخيالى الوصول إلى تصور ذلك  
الإنسان الأول الذى يعتقد « طيباً بالطبع » . وكما عمد فى خطابه الأول حين  
أراد أن يستظهر الفرد على ما يجب أن يكون فى المستقبل إلى انتزاع صورة من  
نفسه . كذلك كان متأثراً هنا عند رجوعه للماضى بما يتماه لنفسه وشخصه .  
وليس ذلك بالغريب منه وقد قضى كل حياته مهتماً بنفسه جاهلاً ما سواها متعلقاً  
بها إلى أقصى حدود الأنانية .

الإنسان الأول فى خيال روسو هو ما يصوره حين يقول : « أرى عند  
تصورى الإنسان كما لا بد قد كان حين أبدعته يد الطبيعة حيراناً أقل فى قوته

من البعض وأقل في خفه حركته من الآخرين ، ولكنه مرتب في مجموعه على شكل أقرب لفائدته من أشكالهم جميعاً . وأراه جالساً يتناول طعامه تحت شجرة بلوط ويشرب من أول غدير يصادفه ويجد مرقده عند جذع الشجرة التي قدمت له طعامه ، وهناك يكون قد استكمل حوائجه . .

« وبما أنه لا يزال في مرتبة الحيوانية فهو يقلد صناعة الحيوانات . . ويرتقى إلى فطرة البهائم . . ويجمع بين مختلف طبائعها . . ويتغذى من أكثر المواد التي تصلح لمختلف الحيوان ويجد حياته بذلك أسهل مما يجدها أي نوع منها » .  
« ولما كان جسم الرجل المستوحش هو الآلة الوحيدة التي يعرف فهو يستعمله في وسائل شتى تعجز دونها جسمونا لقله دربتها عليها » .

هذه هي الصورة المادية التي يراها جان جاك لابن الطبيعة أول ما خلقتة . فهو رجل متوسط القوة متوسط الحركة يهيم لا يدرى أين يذهب ويقضى حوائجه كما يتاح له . يحل به الجوع فيتناول أيا ما يصادفه ليزيله به . ويحس بالعطش فيجد عند أول غدير وأول بقعة ماء ما يروى أوامه . فإذا جاءه التعب مال إلى ظل أول شجرة تقابله . وإذا جنّه الليل نام تحت هذه الشجرة غير متخوف شيئاً . هو حيوان ككل الحيوانات الضالة الهائمة .

وهو يقضى حوائجه الجنسية بمثل ما يقضى به حوائجه الذاتية من البساطة فلا يعرف الاختيار في النساء ولا يعرف ما يتبع ذلك الاختيار من عواطف الحب والهام . وهو في ذلك إنما « ينصت للفترة التي وجهتها إياه الطبيعة لا لذوق لم يتكون له بعد . فكل امرأة حسنة في نظره . وهو ينتظر بهدوء ومن غير تفكير دفعات الطبيعة . فإذا جاءت أسلم نفسه لها من غير اختيار وكان سروره بذلك أكثر من شدته فيه . ومتى انقضت حاجته انطقت رغبته » .

فإذا تم اللقاح بين الرجل والمرأة على هذه الحال الحيوانية البحتة انفصلا وبقيت المرأة حتى تضع ولدها ثم تسعى له سعى أنثى الحيوان لصغارها ، فإذا شب الصغير وصار في طوقه أن يجد قوته تركته يعمل له . ولا خوف في نظر رسو على هاته المخلوقات الضعيفة من عدوان غيرها عليها . « فإن الشفقة تحل في الحالة الطبيعية محل القوانين والأخلاق والفضائل . ولها على هذه النظم من الفضل أنه لا أحد يفكر في عدم الاستسلام لصوتها الرقيق . فهي تمنع المستوحش

القوى عن أن يأخذ من الطفل الضعيف أو العجوز المريض ما يقيم أوده مما كسبه يده ، ما دام ذلك القوى يأمل في العثور على طعامه من طريق آخر » .

في هذه الحالة الطبيعية الأولى وتلك الحيوانية المطلقة كان الناس جميعاً على تمام السعادة . كانوا ممتعين بنعيم الجهل وهناء القناعة لا يشغل بالهم شيء يستثير منهم همماً أو ألماً ، ولا يداخل نفوسهم الطمع فينص عليهم راحة الحياة السعيدة . كانوا يعيشون كل ساعة لساعتها وكل لحظة لنفسها غير مفكرين للمستقبل ولا ذاكرين الماضي ولا مريرين جديداً .

ولو أن السعادة كتبت للناس في هذه الدنيا لظلوا عند هذه المرتبة الأولى حيث الهناء الأكمل ولما غادروا ما كانوا يرتعون فيه من نعمة المساواة وعدم التنافس . . . ولكن أتى لهم سكينه النفس بعدما خرجوا من أحضان الطبيعة ثم لا يفكر أحد منهم في الرجوع إليها أو في تنسم ريحها الجميل .

« بل لو أن الطبيعة كتبت للناس أن يكونوا سعداء لحق لي أن أؤكد أن حال التفكير حال مناقضة للطبيعة وأن الرجل الذي يفكر إنما هو حيوان فسد مزاجه » .

كلمة غريبة تلفظ بها روسو . كلمة قال جول لمر إنه ما نطق بها إلا ليدهش فلاسفة عصره وجميلات ذلك الوقت . لكننا نعتقدها على غرابتها صادرة عن إيمان بها ويقين بما تحويه من حقيقة لا يشك جان جاك في صحتها . كلمة نطق بها تحوى كل ما يخامر من الألم لما ارتكست فيه جمعية ذلك العصر من رذائل الترف عند قوم وبؤس الفاقة عند آخرين . وإنه في تقريره هذه الفكرة الغريبة إنما يريد أن يقول : هاهي ذى آثار العقل الإنساني بادية أمامنا بعظمتها وجلبتها . هاهي ذى المدينة التي أبدعها بنو آدم ملأى بالتعس والنقص وهاهم أولاء الناس يضحجون تحت نيرها ويحز الألم رقابهم . فماذا كسبوا ؟ ثم ما هي لعاية التي يرمون إليها ؟ أليست غايتهم جميعاً الفناء . وهل سعادتهم في شيء غير العيش في ظلال الحرية ؟ فإذا كانت المدينة التي أنتج الفكر هي أصل عدم المساواة ومصدر فناء الحرية وسبب الشقاوة والتعس فهلا يكون الفكر الذي أبدعها جميعاً أصل كل بلاء . وما دامت الطبيعة لا تريد بالناس إلا الخير فحالة التفكير حالة غير طبيعية » .

وليس غريباً صدور هذه الفكرة عن روسو مع عظيم ولعه بالسكون والطمأنينة .

ولكن الغريب إغراقه فيها وغلوه . وكأنما كانت هذه غريزة فيه يندفع وراءها حتى يجد من يرده لصوابه . فهو لا يقول باستبقاء المكاتب والمتانف إلا بعد أن يرد عليه ستانسلاس وبورد قائلين له إن خطابه عن العلوم والفنون رجعة بالإنسانية إلى البربرية والوحشية . وهنا كذلك يقول بعد أن يقرر أن من خصائص الإنسان التي يمتاز بها قدرته على الكمال قدرة مصدرها الفكر : « وإنا لـإنانا مع عظيم الأسف مضطرين للتسليم بأن هذه القوة المميزة التي لا حد لها - قوة استطاعة الكمال - هي مصدر تعاسات الإنسان كلها وهي التي تخرجه بالزمان من تلك الحال الأولى التي كان يمضى فيها أياماً هادئة بريئة » .

واضح عنده إذن أن كل خروج على الطبيعة تدرك إلى الشقاء : « واضح أن أول من خاط لنفسه ملابس أو أقام لنفسه مسكناً إنما اقتنى أشياء قليلة حاجته إليها بدليل أنه تمكن من الاستغناء عنها إلى يوم عملها . فلو ليس ثمة ما يظهر لنا السبب الذي جعله عاجزاً عن أن يحتمل في رجولته نوعاً من الحياة استطاع احتياله صغيراً » .

لكن الحيوانات نفسها تلجأ إلى أكنان تقيها البرد والريح وعاديات الطبيعة وينزين بعضها بما يكاد يشبه لباس الإنسان الأول . فهل هي بذلك تتدرك إلى التعمس أو تعمل على تقيض ما تريده الطبيعة ؟ ليس في مقدور أحد ولا روسو نفسه أن يجيب عن ذلك إيجاباً . فإن الحيوان هو المثل الأعلى للمخلوق الحي الطبيعي وإليه « ارتقت فطرة » الإنسان الأول في رأى روسو . كما أن القدرة على الكمال وهي التي تميز الإنسان عما سواه إنما هي ميزة وهبتها إياه الطبيعة فلا يمكن والحالة هذه أن تكون ضد الطبيعة .

ولكأن روسو يحس بذلك بعض الإحساس ويرى ما في فكرته من غلو وإغراق . لذلك سمح لهذه القدرة الفطرية أن ترتقى إلى حال يجد الناس عندها السعادة هي حال القبائل البادية التي لم تعرف الملكية . ذلك بأن الناس عندها وإن كانوا قد أصبحوا أقل احتمالاً وكانت الشفقة الطبيعية المعروسة فيه قد عانت بعض التغيير فإن هذا العصر من عصور رقى القوى الإنسانية . وقد قام وسطاً بين كسل الأيام القديمة وتراخيها والنشاط المفرط الذي امتازت به أنانيتنا . يجب أن يكون أسعد العصور وأنهاها . وكلما فكر الإنسان تجلى له أن هذه الحال كانت

أقل الحالات تعرضاً للتورث وأحسنها وأسعدها لبني الإنسان فلم تخرجهم منها إلا مصادفة منحوسة . وجماعة المتوحشين الذين وجدوا ، ولا يزالون ، يعيشون هذا النوع من أنواع الحياة ، هم خير مثال يثبت أن النوع الإنساني إنما أعد ليبقى فيه . وإن تلك الحال هي حال شباب العالم الحقيقي ، وكل تقدم حصل بعدها إنما كان تقدماً نحو كمال الفرد بمقدار ما كان اقتراباً من فساد النوع .

إذن « فالحياة البسيطة المتشابهة المنفردة التي قدرت لنا الطبيعة » ليست هي أحسن أنواع الحياة . وإنما يجب أن تتخطاها إلى حياة القبيلة وقبل أن توجد الملكية حتى يجد الناس المساواة ونعيم الجهالة وركود العقل ونعمة القناعة بما تحت يدهم وعدم التفكير لغدهم . فإذا هم ابتدءوا يفكرون للغد ابتدأت أعراض عدم المساواة تظهر وابتدأ يظهر معها البؤس والشقاء .

وعل روسو رأى ما يكون من غلو غير معقول في القول بأن الإنسان المستوحش المنفرد لندى يعيش عيشة الحيوان أفضل من الإنسان الممتاز بقدرة الكمال ، المستعمل لهذه القدرة . وخشى من يفاجئه بمثل الردود التي وجهت لخطابه عن العلم والفنون . عني أن الفكرة المعدلة نفسها بالغة في الغلو وقائمة على أساس خاطئ . فليس للمستوحش ذلك القسط من الشفقة الذي يريد روسو أن يعزوه إليه . كلاه لا هو رقى أخلاقاً من المتمدنين . وإنما كانت فكرة « الطبيعة الطبيعية » أو « الطبيعة الوحشية » شائعة يومئذ ، وكانت فطرة روسو تدفعه ليؤمن بها . وخياله وتحمسه لعقيدته ضمنا له القوة في استظهارها على شكل خطابي ثورى شديد .

وبعد أن أظهر أن عدم المساواة لم يكن موجوداً في الحالة الطبيعية وفي الجمعيات الأولى غير المفكرة ، استطرد ليرى ما جاءت به المدنية من المصائب والأرزاء فظهر له أن أساس المدنية وأهوالها إنما هي فكرة الملكية .

« وأون من فكر حين أحاط قطعة أرض في أن يقول - هذه لي - ووجد قوماً بلغ بهم العمى ليصدقوه هو الواضع الحقيقي للجمعية المدنية . وكم من الجرائم والحروب والدماء . وكم من التعس والبؤس كان يوفره على الإنسانية ذلك الذي يتقدم ساعتئذ فيقتلع الأعلام أو يردم الخندق المحيط ويصبح في قومه : إياكم والاستع لهذا الكذاب . »

وتلك الصيحة من روسو هي من الصيحات الأولى التي ارتفعت ضد

الملكية والتي تقدمت الآراء الاشتراكية . ولئن تقدم روسو كتاب آخرون نادوا بالمساواة وقرروا أو كادوا مبدأ ( الكوميتزم ) فإن أثر روسو بخطابه عن عدم المساواة وبعقده الاجتماعي طمس على ما كتبوا وظهر للأجيال التي تلته نبراساً ورفقاً . كانت كتابات هذا الياثس المتشرد على ما فيها من سفسطة غير قليلة تهرز القرن الثامن عشر والأيام الأولى من القرن التاسع عشر هزات لم يطمع فيها فولتير ولا فكر في شيء منها مدينتسكير حين وضع مكاتيبه الفارسية وكتابه روح الشرائع . وكيف لا تهزهم الفكرة الجديدة وقد كانوا جميعاً يشعرون في أعماق صدورهم بشيء من القلق أمام نظام أساسه التمتع بالملكية الواسعة من أقلية تنفق عن سعة وسخاء لإرضاء ملاذها إرضاء لا يتم إلا بإذلال الأكثرية الفقيرة المحرومة من الملك والقضاء على حريتها . وقد كانت صيحات روسو الحارة الصادرة من أعماق نفسه الدالة على شديد إيمانه بما تحتويه قيمة أن تنبه هؤلاء الفقراء المستدلين إلى ما هم فيه من هم وحرمان وذل وأن تدفعهم للثورة عليه . وما كان أشدهم استعداداً يومئذ لذلك أمام ما رأوه من صلف الأغنياء وكبر يائهم الفارغة واستمتاعهم بمذلة إخوانهم من بنى الإنسان وعدم اعترافهم بما لغيرهم من حق في ثروة أقامها هذا الغير بعرق الجبين ويتمتعون هم بها من غير عمل وبلا عناء .

« بل لو رأيت جماعة من الأغنياء والأقوياء ممتعين بما بلغوا من مراقى العظمة والثروة وإن تردى المجموع في الظلمة والتعس فذلك لتقدير الأولين متاعهم بالأشياء على نسبة حرمان سواهم منها ، ولو بقى لهم ما يتمتعهم وزايل المجموع يؤسه وتعمسه لانقطع عليهم سبيل السعادة » .

ولا دواء لهذه الحال إلا باستئصال أسبابها ، والسبب الأول هو هذه المدنية المترفة القاسية التي تحكم الإنسانية بنيرها الثقيل . ومهما قيل عن ذلك التقدّم الموهوم فإن المتاع بالحرية الصحيحة المطلقة خير ألف مرة من هوان دائم نُكره عليه باسم النظام والتمدين . والحرية لا تكون مع عدم المساواة ومع قيام شخص بالعمل يستمتع غيره بنتائجه . فإذا لم يكن من سبيل لهذه المساواة إلا العودة لما يسمونه الوحشية فلنعد إليها فهى خير وأبقى ما دامت الحرية فيها محترمة مصونة . وهل الرجل المستوحش وكل حيوان مستوحش إلا مثال الموحّد الحر الكريم .

قال روسو :

« وكما أن الحصان غير المهذب ينفش شعره ويضرب الأرض برجله ويشدد لجهه لمجرد إدناء اللجام من فمه في حين يحتمل الحصان المدرب السوط والنخس بصبر وجلد . كذلك لا يبطأ طيء الرجل المستوحش رأسه للنير الذي يحتمله المتمدنين من غير ضجر بل يفضل الحرية مهما خالطها على الاستعباد وإن صحبه السكون والهدوء » .

ولكن الناس مع الأسف يصبرون على حريرتهم المفقودة من غير ضجر ويرتضون الخضوع للرق وعدم المساواة في الأرزاق والدرجات . بل ترى كل منهم يطمع في الحصول على قسط من الترف الذي يتمرغ فيه غيره . وهو يرى لذلك لازماً أن يقبل تعسف من هم أرق منه في الدرجة كى يستطيع العيش والعمل إلى جانبهم ببعض السكينة والهدوء وأن يرى حريرته يتقلص ظلها ثم لا يستطيع التمسك بها مخافة أن يزيدا تمسكه بها ضياعاً . كما أنه يندفع بدافع الأمل والطمع رجاء الحصول على شيء مما يميز جماعة الأغنياء والأشراف . متى داخله الطمع رضى أن ينزل عن كثير من أنفة قد تقف في سبيل أغراضه كما دخل نفسه وقلبه هم غده . ومتى أهم المرء غده . فقد أهم أركان السعادة .

وظل الناس . بما يدعونه لأنفسهم من التقدم ، يتورطون في فوضى عدم المساواة ويقاسون أهوالها . فإذا فكر فريق منهم في الخروج على النظام القائم لم تقدم حركتهم إلا إمعاناً في الألم وتورطاً . « ومن أعماق هذه الفوضى وتلك الثورات يرفع الاستبداد رأسه البشع رويداً رويداً ويلتهم كل ما تقع عليه عينه من طيب أو سحيج في أجزاء الحكومة ثم يصل أخيراً ليطأ تحت قدميه القوانين والشعب وليقوم على أنقاض الجمهورية » . فإذا قام قائم ضد هذا الاستبداد لم يكن همه إلا تخفيف بعض ويلاته من غير تفكير في الرجوع إلى حال المساواة الطبيعية . وبذلك تبقى الفروق ويبقى هم التفكير للغد ويبقى ما يجيء معها من المصائب والويلات . هاته هي الأفكار التي عرضها روسو في هذا الخطاب . ومع ما هي عليه من حرارة والقوة فإن أثرها لم يظهر بعد نشرها بل بقيت زمناً حتى إذا قامت الثورة الفرنسية خامرت كل النفوس وأصبحت بعض قرآن ذلك العصر المملطخ بالدماء في طلب الحقوق المهضومة . وتلخيصها الذي قدمناه ينم عن غرابتها .

على أن أغرب ما فيها هو صيغتها المملوءة قفة وحرارة وإيماناً . قأما الأفكار التى فيها فكانت متداولة بين كبار كتاب ذلك العصر .

وروح الفكرة فى هذا الخطاب عند إميل فاجيه هى : الإيمان بأن الإنسان هو على أقل تقدير مدنى أكثر مما يجب . فيجب - على الأقل - تحديد المدينة فى أضيق حدودها ، والرجوع بها إن لم يكن لدائرة الأسرة فللقبيلة أو العشيرة أو المدينة الصغيرة حتى يقل حِسل الواجب وعظيم المجهود ومهول ما بين الناس من الفروق . وبذلك تقل الحاجات المختلفة من مجد وترف وحياة مدنية وتفنن فى المتاع ويرجع الإنسان إلى نصف حيوانية مفكرة ولكنها صحيحة مطمئنة هادئة متحابية هى حالته الطبيعية والحال التى يجد فيها السعادة .

ومع أن هذا الخطاب أقوى وأشد من خطابه الأول فإنه لم ينل جائزة أكاديمية دينيون .

بعد نشر هذا الخطاب بزمن غير طويل سافر روسو مع صديقه جوفكور إلى جنيف واستصحب معه تريزلفاسير . فلما كانوا فى الطريق حدث ما استوجب القطيعة بينه وبين صديقه . فركه عند ليون وعدل إلى طريق السافوا . وخطر فى باله أن يمر بمدام دفارانس ومر بها ورآها . قال :

« رأيتها . . ولكن . فى أى حال يا إله السماء وفى أى هون ؟ ماذا بقى لها من فضيلتها الأولى ؟ هل هى هاته مدام دفارانس البديعة التى بعث بي إليها المسيو بونفير ؟ ألا كم شق علىَ حَالها ساعتئذ ؟ . . ولم أر من وسيلة لها إلا هجر بلادها . فكررت لها على غير جدوى ما طالما طلبته إليها فى خطاباتى لتحضر وتعيش مطمئنة معى فأكرس أيامى وأيام تريز لإسعادها . لكن تعلقها برزقها الذى كان يصرف لها من غير أن تستفيد منه جعلها لا تسمع إلى » . ثم تركها وترك لها بعضاً مما عنده . فلما التقيا بعد ذلك وعلمَ بخلو جيبها أرسل بنقد إليها على يد تريز : « وكانت هذه هى اللحظة التى يجب أن أفضى فيها ديني بأن أترك كل شىء لأتبعها وأن أبقى معها حتى ساعتها الأخيرة وأن أقاسمها حظها أياً يكون . . لكنى لم أعمل من ذلك شيئاً . وأحسست أن ما كان بيننا من رابطة قد انقطع فلا يفيدنا لأن رابطة أخرى ألهنتنى عنها » .

هذا هو روسو الأنانى المحب لذاته . وقد تعزى عن فعلته هذه بما يتعزى

به دائماً من أنه طيب القلب وأنه لا يستطيع أن يجيء بنكر ولا أن يرتكب سيئة . على أن لديه شفوياً يغفر له هذه الخطيئة ويغفر له كثيراً من مثلها . إنه نابعة وللنوايع هفوات إذا هم دققوا في محاسبة أنفسهم على كل واحدة منها ضاع نبوغهم وضاعت فائدة العالم منهم . والقوة الكميته في نفس روسو والتي دفعته لارتكاب أغلاطه - هذه القوة القائمة على أساس من الغرور وحب الذات - هي عينها تلك العبقريه التي دفعته ليخرج للناس خطابه عن عدم المساواة والتي سندفعه في المستقبل ليقلب الأدب الفرنسي في ذلك العهد رأساً على عقب ، وهي أيضاً التي ستجعله الرسول الذي يجهز للشورة الفرنسية إنجيلها ويمهد لها السبيل العظيم الشنيع الذي تختطه .

وفيما هو في ( شمبى ) كتب إهداء خطابه عن عدم المساواة إلى جمهورية جنيف مسقط رأسه ومهد صباه . فلما وصلها استقبله أهلها أحسن استقبال واحتفوا به وأكرميه . فأحدث ذلك في نفسه أثراً بلغ حتى جعله يفكر في استرجاع حق انتسابه لهذه الجمهورية . لكن ذلك لم يكن بالأمر الهين وهو على دينه الجديد . فلم ير من بأس أن يرتد إلى البروتستانتية دين آباءه : « وما دام الإنجيل هو الإنجيل لجميع المسيحيين . . فإن تفسير آياته هو في كل بلاد من حق سلطانها . . ولا لم يكن لعاقل أن يرى طريقين للمسيحية فكل ما يتعلق بالشكل والنظام يدخل في دائرة القانون » .

وفي أوائل أكتوبر سنة ١٧٥٤ ارتحل عن جنيف راضياً كل الرضا عن مقامه فيها منتظراً عودة الربيع وزخرف الطبيعة ليعود إليها فيرتب طريق الحياة الذي يسلكه بقية عمره بين جناتها الناضرة وحول البحيرة البديعة الساحرة التي لم ينس أن يأخذ من مناظرها بنصيب مدة الأشهر القليلة التي قضاهها حولها . ووصل إلى باريس مبتداً الخريف وباشر طبع خطابه الجديد مصدراً إياه بالإهداء إلى حكومة الجمهورية وانتظر ما سيجره هذا الإهداء من عطف عليه وإعجاب به . ولكنه سقط في يده حين علم أن ظهور الكتاب زاد في عدد أعدائه بين أعضاء حكومة جنيف ولم يخلق له صديقاً جديداً . وقد انقلب بعد ذلك ينظر إلى هذا البلد المحبوب بعين الريبة والشك .

ولما جاء الربيع لم تمكنه الفرصة من إنفاذ فكرته في العودة إلى جنيف .

وَم بكن سوء استقبال كتابه هو كل السبب في عدوله بل جاء إلى جانبه سبب جديد . ذلك أن مدام دبنای أقامت له منزلاً إلى جانب قصرها بالشفرت ولم يستطع هو أن يمضى في عزمه ويرفض قبول هبة صديقه .

وهذا السبب الأخير وحده هو الذى يقدمه روسو ليعنل به بقاءه بفرنسا وامتناعه عن الذهاب إلى جنيف . ولعله الغرور هو الذى يجعله يغفل ذكر السبب الآخر .

وهنا ترك روسو يفكر في منزله الجديد لنفكر نحن في طريق تفكيره يومئذ . ونحسب القارئ قد وصل معنا ليرى أن روسو لا يزال شاعراً أكثر منه مفكراً . فهو يريد أن يتبع المعلول بعلة ويصل النتيجة بسببها فيجىء بمقدمات خطابية يملؤها من روحه حماسة وقوة ، ويحسب قارئه قد اقتنع متى اقتنع خياله هو بالصورة التى دارت فيه ومثلت نفسه أمامها . وهو يتترع من مخيلته صوراً يسميها تاريخ الإنسانية ويرسم أمامك الحيوان الذى يحنو له ليسميه الإنسان على ما فطرته الطبيعة . لكنه إلى جانب ذلك موقف الخيال مرتب الحواس إلى حد تكاد تُظهر سورة معه حقائق ناطقة تخاطب القلب والعقل عصوراً متتالية وتبى آخذة بها برغم تقلب الأزمان وتطور الأفكار .

فصيحته ضد الظلم ، ونداؤه ضد الترف . لم يكونا مبنيين على فكرة اجتماعية محتمرة في رأسه تكون مع غيرها طريقاً خاصاً في البحث والنظر . بل كانا أثر تلك الحياة المتشردة التى أنقضت ظهره أيام شببته . وطمعته على الملكية وإظهاره ما تورته من النعس لم يكن نتيجة فكرة اشتراكية متدبرة . ولكنه نتيجة ما كان فيه هو وأمثاله من الفقر والفاقة وما قاسى من الجوع أيام صباه . ولهذا كله كنت تراه كثيراً ما يناقض نفسه وتتضارب أقواله تضارباً كانت تخفيه القوة الهائلة التى امتاز بها أسلوبه النائر المسلوع خيالاً وقوة .

وكانت هذه القوة فى الأسلوب تخفى كل عيب آخر . وهى التى رفعت روسو برغم كل المعارضات التى وجهت إلى خطاباته إلى مقام أعظم أدباء عصره وجعلته موضع إعجاب الأكثرين والصالاة المنشودة فى صالونات الجميلات والأديبات .

وهى هذه القوة التى حببته إلى مدام دبنای حتى جعلتها تسعى لتختصه لنفسها

فتنال بذلك حظاً يحسددا عليه غيرها .

وستزداد هذه القوة حتى تبلغ أوجها حين يخط جان حاك روايته « لانوفل هلويز » فيحيي بها الرومانزم ويحضر بها أول حفرة في قبر الكلاسيكيزم ثم تبدأ ليحل محلها تفكير أدق وأعمق يضمن للناس ترتيب روسو لنظرياته في كتابيه الكبيرين « التربية » و« العقد الاجتماعي » .

obbeikanda.com

أقام روسو بجنيف حوالي أربعة أشهر كان فيها معززا مكرماً بين أهل بلده وموضع إعجاب الكثيرين منهم . ولقد جعلته غرابة زيه وتفرده في أخلاقه وفي طريق تفكيره ونظره للأشياء محلاً لعطف البعض ولقضاء شهوة الطلعة عند الآخرين . وما كان ليضن على هؤلاء بنفسه وقد كان يقضى معظم وقته في العابات وعلى شواطئ بحيرة ليمان . بل لقد مد لنفسه في متاعها فظاف حول البحيرة تصحبه تريز وجماعة من أصدقائهما .

ورجع إلى باريس على عزم العودة إلى جنيف أول الربيع . لكن جور جنيف تغير عليه بعدما نشر كتابه كما أن صديقه مدام دلايف دبناي تعلقت به . ولم ترض فراقه وأضافت إلى قصرها بالشيشرت عند منتهى حدائقه على مقربة من غابة ( مونترنسى ) بيتاً صغيراً مؤلفاً من خمس غرف وما يلزمها أحسنت نظامه وتنسيقه وذهبت بعد تمامه ومعها جان جاك وعرضته عليه قائلة : « إنها الصداقة تهيك إياه . وأمل أن يبعد عنك تلك الفكرة القاسية فكرة ابتعادك عني » . ولقد كان هذا البيت أكثر ما يكون ملاءمة لمزاج روسو . صومعة منفردة وسط العابات والحدائق يجد فيها كل ما يرجوه من لذائذ الوحدة والسكون والطبيعة في أجمل مظاهرها . لذلك فلقد كفى هذا العرض وبعض الرجاء لتكسب مدام دبناي موافقة على البقاء إلى جانبها .

« وما ساعد على تكوين هذا العزم عندي إقامة فولتير على مقربة من جنيف . فلقد وفر في نفسى أن هذا الرجل سيثير البلد ضدى وأنى متى ذهبت وجدت في وطني العادات والأفكار والأخلاق التي أخرجتني من باريس فاضطرر لمناضلة ذلك كله نضالاً دائماً » . ولا يعجبني القارئ من ورود هذه الكلمة على لسان روسو متى عرف ما كان بينه وبين فولتير وعرف أن كل واحد منهما كان يمثل الطرف المناقض للآخر في كل شيء . فقد كان فولتير ممثل الحياة الاجتماعية في أشد مظاهرها صناعة وأكثرها إفساداً : التحكم والإلحاد . في حين كان

روسو داعية الطبيعة ومجد الدين . وكان فولتير رقيقاً وسيئاً في حين كان روسو خشناً وطيباً . وكان فولتير غنياً ومن طائفة الأمراء في حين كان روسو فقيراً ومن عامة الشعب . وكان فولتير محققاً في السياسة في حين كان روسو خيالياً فيها ، وكان فولتير استبدادياً في حين كان روسو جمهورياً . وكان فولتير ملحداً في حين كان روسو متديناً ، وكذلك كان كل منهما نقيض صاحبه على خط مستقيم .

وكانت مدام دبناي من سيدات ذلك العصر اللاتني أولعن بالكتابة وادعين التفكير وعلمن على أن يضممن إليهن كبار المفكرين والكتاب . وقد تعلقت بروسو ووجدت في شخصه وفي حديثه ما حبه إليها حتى قالت في بعض مذكراتها : « إنك لا تتصور مبلغ ما كنت أجده من اللذة في محادثته » . وقالت واصفة شخصه وخلقه : « إنه لداح من غير أن يكون ملقاً ، أو بالأقل من غير أن يظهر عليه ذلك . ولكأنه لا يعرف عادات الجمعيات الراقية . لكن من السهل أن ترى ما هو عليه من عظيم العقل . وهو أسود الشعر ذو عينين تتقدان فتحييان صورته . فإذا تكلم ونظر إليه الإنسان رآه جميلاً . أما إن ذكره فيها بعد فإنه يراه قبيحاً . ( ولقد كتبت هذه المذكرات بعد أن تمت بينه وبينها القطيعة ) .

وهذا التعلق به هو الذي جعلها تقيم له صومعته وتضع له فيها أئانا جميلاً . وفيما كانت هي في ترتيبها كان روسو يعد نفسه للانتقال إليها لأول تمامها . وساعده إذ ذاك أنه لم يكن في حال من الفقر تقعد به عن كل عمل .

وانتقل إليها في التاسع من أبريل سنة ١٧٥٦ ومعه تريز وأمها . وكان أول همه أن ترك نفسه تأخذ مما حوطها من المناظر الريفية . فبدل أن يبدأ بترتيب مستقره بدأ بترتيب رياضته وزهه فلم يترك من غده طريقاً ولا مجتمع أشجار ولا حزن ولا بطناً مما حول مسكنه إلا اكتشفه . فلما قضى شهرته من ذلك رحع يرتب كتبه وأوراقه ويفكر فيما يريد تأليفه .

وجعل يعيش مما معه وما كان يكسبه من نقل الموسيقى : قال : « ولقد كان في طوفي أن أنجه إلى الناحية الأكثر كسباً فأترع بقلمى بدل قصره على النقل - لتحرير كتابات تضمن لي إذا جمعت بين حسن اختيار الكتب ومناورات المؤلفين عيش سعة بل عيش رخاء خصوصاً بعد الذي نلت من شهرة لم يكن من الصعب على أن أحفظ بها ، لكنني أحسست أن الكتابة لكسب العيش من شأنها أن

تخمد نبوغى وتقتل ملكة كان محلها قلبى أكثر مما كانت متعلقة بقلمى ، ويرجع وجودها إلى طريقة فى التفكير راقية أنوفة هى وحدها التى تغذيها . وليس للقلم المتجرب أن يخرج للناس شيئاً قوياً ولا شيئاً عظيماً . أما الحاجة والطمع فيلجان للإكثار من الكتابة لا لإجادتها » وبقي مشغلاً بنقل الموسيقى وبيع بعض كتابات غير ذات شأن كما اشتغل بالقراءة وتلخيص بعض كتب كلفه أصحابه بتلخيصها . وسمحت له وحدته ومراجعاته نفسه ومناقشته أفكار من يلخص له بتدقيق فكرى لم تكن كتاباته الأولى لتم عنه . لكن ذلك التدقيق لم يخرج عن الطريق الذى رسمه لنفسه من قبل بل زاده إمعاناً فيه وثوقاً منه . ويحلى له من حديد : « إن المبادئ التى وضعها حكماؤنا ليست إلا الخطأ والجنون . وإن نظامنا الاجتماعى ليس إلا الضغط والتعس » . وانتقل ذلك الاعتبار من فكره لإحساسه كما هى عادته . وقوى فى نفسه وتحكم فيه حتى ملكه ودفعه ليطلب تغييراً يتفق مع مبادئه . فراد أن يغير زيه على نحو ما فعل قبل ذلك لولا أن رأى أصحابه فى المسألة ما يشينه فسنعه عن أن يتمها .

« ولقد كنت طيباً إلى يومئذ . أما من ذلك الحين فقد تملكتنى الفغيلة أو على الأقل سكرت بخمرتها ، وابتدأت النشوة فى رأسى وسرعان ما انتقلت إلى قلبى واحتلت الأنفة الشريفة نفسى قائمة على أنقاض الغرور الذاهب . ولم أظهر للناس من ذلك شيئاً ولا ادعيته . بل بدوت على حقيقى وظللت السنين الأربع التى كانت هذه النشوة خلالها فى ريعان قوتها ولا يعجزنى ما يمكن أن يحتويه قلب الإنسان من عظيم أو جميل » .

فى هذه السنوات الأربع ابتداءً يفكر فى الكتب التى وضعها تفكيراً جدياً ، وكتب منها قسماً غير قليل ظهرت فيه روحه منبهةً وبلاغته البديعة مظهراً غريباً . وفيها ابتداءً يعلو ويرتفع ويعرفه الناس جميعاً « فلم اك ذلك الرجل الخجول تواضعاً . والذى لا يجرو أن يظهر أو أن يتكلم . فإذا وجهت إليه نكتة ضابقتة وإن نظرت إليه امرأة احمر وجهه خجلاً . بل كنت أسير جريئاً أديفاً غير مهتم لشيء وأذهب إلى حيث أشاء بثبات يزيد قوة ما كان عليه من البساطة . ولأنه كان محتلاً روحى أكثر مما كان فى مظهرى » .

ولقد يظهر هذا التغيير فى أخلاق جان جاك غريباً فى بابه . رجل على

غروره الكبير كثير الخجل محب للوحدة مبتعد عن الناس يخرج فجأة من وكره ويخضع لحكمه من كانوا ذوى سلطان عليه لا بد أن يكون قد طرأ عليه حديد غير من حاله . فمادا عساه يكون ذلك الجديد وكيف كان تأثر روسو به ؟

الجديد فيما نعتقد هو أن الفكرة التي دخلت إلى ذهنه ودفعته إلى تصور أن الناس جميعاً يعادونه ويريدون إلحاق الأذى به . قد ابتدأت تقوى في نفسه وتأخذ منها محل العقيدة . فأدت إلى حصول تطور عنده يلائم فكرته فيجعله يقوم للدفاع عن نفسه ولصد الأذى الذي يتوقع . ولما كان قد أقام نفسه لمناصرة الفضيلة ومحاربة الترف ولدعوة الناس إلى الرجوع إلى حالتهم الطبيعية التي تضمن سعادتهم كان طريق التطور ونوع الدفاع مرسومين أمامه مقدما . فاحتقار للعادات والعقائد السائرة وانتقاص من حكم غيره وطريق نظره .

وفي هذه الحال الجديدة أقام في صومعته بحوار ( الشيفرت ) ممثلاً نفسه بمناظر الطبيعة ، معتقداً نفسه الملك على هذه المجاورات الرائعة مما حوله تاركا لخياله وإحساسه ولعقله العنان يتخيل ويحس ويفكر على ما يشاء ، وقد يحلو له غير مهمته بحكم الناس عليه ولا بما يريدون من الشر به . وكأن لم يكن في عالم جان حاك يومئذ غير شخصه وغير تربيته وأمهات . وإنك لترى الاعترافات عن ذلك الوقت مكرسا صحائف عديدة يصف فيها تربيته وطبيعته قلبها وعباوة عقلها وانقيدها الأعمى لأمرها وفساد نفس هذه الأم والمداف مع خصومه على الوقعة به وما بنفسه هو لذلك من شقاء . أما ما سوى هذا من تفصيلات الوقائع التي يذكرها عادة فهو هنا يمر عينا مراً كأن لم تكن في حياته شيئا مذكورا . قال :

« ودفعني تذكري لمختلف أيام حياتي أن أفكر في الحال التي وصلت إليها فرأيت نفسي في منحدر العمر فريسة آلام قاتلة وخيل لي أني أقرب من ختام أيامي ومأثدوق تلوقاً كاملاً أياً من الملمات التي يريدتها قلبي » .

وإنما كان يقضع عليه سبيل خيالاته وأحلامه شخص له عليه كل السلطان فلا يستطيع له رداً . تلك هي مدام دبنائى . فظالماً أفسدت عليه تربيته للراحة أو للعمل ولطالما دعت من صومعته إلى قصرها بالشيفرت وهو أقل الناس ميلا للخروج من وكره . لكنه كان يحبس دائماً بيدها عليه . كما أنه كان يميل إليها بعض الميل

وإن لم يبلغ ميله الهوى . لذلك تراه لا يذكر تحكمها بشيء من الثورة كما هي عادته حينها يكتب عما لا يحلو له .

وهون عليه هذا التحكم من جانبها أو أنسائه إياه ما كان في نفسه يومئذ من خيالات الحب والهوى والهيام . ولكأنه بعد إذ بلغ الخامسة والأربعين يريد أن يستعيد أيام الشباب الأولى . وليس ذلك عليه غريباً . فلقد ظل طول عمره شاب القلب مهتاج العواطف . ولما لم يجد يومئذ شخصاً يهديه قلبه جعل يسطر ما يجول به في صورة خطابات متبادلة بين عاشقين فيرضى بذلك شهوة نفسه حيث يتسمع على ما يجول في حنايا فؤاده ثم ينتزع من خياله شخصاً موهوماً يتبادل وإياه نجوى الغرام .

هذه الخطابات الأولى هي مبتدأ روايته (جولى) أساس الرومانتيزم الذى حكم بسلطانه بعد ذلك على أدب القرن التاسع عشر . وعجيب ذلك وقد كان روسو يوم كتبها أبعد ما يكون عن التفكير في وضعها رواية وإبرازها لتحدث ما أحدثته (الهلويز) من الأثر فتقلب أدب أمة بأسرها ونخرجه عن الطريق التى كان يسير فيها طريق التعقل الفنى لتدفع به إلى لجج الإحساس والتخيل ، وإنما أراد بها إرضاء شهوة وقتية قامت بنفسه وتحكمت في فؤاده . ولكن هذا هو الشأن في أحوال العالم : تنقله شهوات النوازع والعبريين إلى أطوار مختلفة أكثر مما ينقله عمل العاديين أجيالاً متعاقبة .

ولقد حدث لروسو يومئذ حادث لم يكن يتوقعه عين له طريق الرواية . وذلك الحادث وما مر بحياة روسو إبان مقامه بالشيقرت هو ما يعيننا الآن . أما الرواية وشأنها فسنعود إليها فيما بعد مفردين لها فصلاً مستقلاً .

ذلك الحادث هو تفضل مدام « دودتو » بزيارة روسو في صومعته . ومام « دودتو » هي زوج أختي مدام دبناي ورفيقة « سان لامير » صديق روسو الحميم . وكانت يومئذ في الثلاثين من عمرها . ولم تكن جميلة إذ أتلف الجدرى وجهها ولا كانت عيناها ذواتى جاذبية أو نفاذ لكنها كانت جميلة القوام حلوة الابتسامة جذابة الحديث لطيفة العشرة . فما رآها روسو لأول مرة حتى أخذ حلو حديثها تتجماع قلبه . فلما زارته للمرة الثانية أولع بها حباً ووجد منها الشخص الذى

قلبه ويعطيه في منحدر أيام حياته بعض اللذائذ التي جن بها فؤاده . وإلى القارئ ما تركته هذه السيدة في نفس روسو . قال :

« رجعت فرأيته فانتشيت بسكرة الحب التي لم تقف عند شخص معين بادئ الأمر ثم وقفت عندها ورأيت جولى - وهو الشخص الخيالى الذى يكتبه - ممثلة في مدام دودتو ثم نسيت كل شيء إلا مدام دودتو لابسة كل معانى الكمال التي كان قلبي يتوق لها في تلك اللحظة » .

ولست أدري إذا كان حب جان جاك لمدام دودتو هو حب رجل لامرأة أو هو حب مؤلف لمن يراها المثل الأعلى للشخص الذى يريد تمثيله في روايته والتي تصنع بذلك لتقدم له أغزر مادة للتأليف ممكنة . فكثيراً ما يأخذ المثل ( الموديل ) بمجامع قلب المؤلف أو الرسام أو النحات ، بل كثيراً ما يكون أساساً لصدقة غرامية هي مهمنا خالطها من معنى الغرام لا تتعدى حدود الصداقة . ويخيل لى أن ميل روسو لصاحبه كان من هذا النوع أن كان حلوه حديثها يوحى لهذا المعتزل في صومعته من بديع المعانى ما يكفي لمادة خطاباته العاشقة التي كان يكتب . ومهما قال لنا في اعترافاته أن هذا الحب بلغ به الهيام بل إنه جن بدمام دودتو جنوناً فإن حالة روسو النفسية وميوله كمؤلف كانت أشد على عواطفه أثراً من مدام دودتو وقوامها وحديثها وعشرتها . وإن ما في روايته عن تذكارات اجتماعاتها لما يؤيد هذه الفكرة بما هو عليه من الصورة الروائية التي لا نستطيع تدهمها في الواقع والتي لم يرد مثلها في كل صداقات روسو النسائية قبلها ولا بعدها والتي لا نجد لنا الإنسان مثيلاً إلا في الصور التي وضعها روسو في روايته ( جولى ) قال :

« كان ما بين الصومعة ( وأوبون ) - مقام مدام دودتو - مسافة فرسخ . وكنت في كثير من سياحاتى أمضى الليل بأوبون . ولقد ذهبت ليلة معها بعد أن تناولنا طعام العشاء في خفة وانحدرنا إلى الحديقة يكلؤنا نور القمر البديع . وسرنا حتى وصننا إلى نبع ماء تحيطه شجيرات أقامته هي بمشورة منى وأقامته ذكراً خالداً للطهر واللذة . وهناك بين الشجيرات وعلى مقعد من الحشائش تحت شجرة لبخ عجملة بالزهور جنست إليها أناجيباً بالكدمات لتي تستطيع أن تعبر عن تموجات فؤادى . وكانت هذه هي المرة الأولى والوحيدة من نوعها في حياتى . فكأنى كنت بديعاً لو صح أن نسمي بديعاً ما يحىء به أرق الحب .

وأقواه من كل لطيف جذاب إلى قلب المدنف الواله . ألا كم دمة نشوانة أرقّت عند أقدامها . وكم أراقت هي الأخرى من دمعات بالرغم منها ، ثم إذا بها صاحت فجأة برغم إرادتها : كلا ! ما بلغ إنسان مثل هذه الرقة ولا أحب محب كما أحببت أنت . . ولكن صديقك سان لامبير يتسمع علينا وليس لقلبي أن يحب مرتين . . فوجمت في تنهد ثم قبلتها آخر قبلة وكان هذا آخر ما وصلنا إليه . وهي إذا كانت قد عاشت ستة أشهر منفردة بعيدة عن رفيقها وعن زوجها ، وكانت قد قضت ثلاثة أشهر وأنا أراها كل يوم أو أكاد فقد كان حب سوى قائماً دائماً بيني وبينها . وإذا كنت قد أكلنا في خلوة بين الأشجار وفي ضوء القمر وقضينا ساعتين في حديث ما أشده حرارة وأكثره رقة فهي قد خرجت جوف الليل من بين الأشجار ومن ذراعي صاحبها كما دخلت فلم يمسس قلبها ولا جسمها بسوء » .

وبعد ثلاثة أشهر من هذا الحب العذرى البرى، العاجز أبليت هذه السيدة محبها أن حديث حبهما شاع وانتشر وأن رفيقها سان لامبير قد وقف عليه من مصادر غير صادقة الرواية وأنها تخشى مغبة ذلك كله وإن اطمانت بعض الشيء أن كانت في مكاتبها رفيقها لا تفتأ تذكر روسو ومقابلاتها المتكررة إياه . وإنما كان يززع هذه الطمأنينة إلى حد يرسل الوجع إلى نفسها ما كانت تحس به من حباثل تنصب لها . فقد كان جرم في الجنديّة ويتقابل الحين بعد الحين مع سان لامبير . وكان بين جرم وبينها أنها صدمته يوماً حين أراد التودد إليها . وبين جرم ومدام دبناي مكاتبات لا تنقطع تمكنه من الوقوف على دقائق ما بين روسو وصاحبه من العلاقات .

ولم تكن مدام « دبناي » بالهينة اللينة في النظر إلى تلك العلاقات التي أهدت قلبها غيرة وحركت في جوفها تلك الفطرة السائية القائمة على أساس من سلاحى الضعيف : الخديعة والمكر . فاندفعت وراءها ولم تترك سيلا تسكنها من الحصول على أدلة مادية تقيم بها الحججة عند (جرم) وبالتالي عند (سان لامبير) على هذا الحب إلا سلكتها ، ولقد وصلت من ذلك حتى أغرت (تريز) لكي تقدم لها الخطابات المرسله من مدام دودتو . ولولا إخلاص تريز وادعائها أن روسو يمزق هذه الخطابات بعد قراءتها لملك مدام دبناي

سلاحاً ماضياً ولما امتنعت عن أن تقيم به حرباً شعواء على ضيفها وعلى زوج أخيها . وكذلك وقفت تريز في هذا الظرف الدقيق موقف الأمانة لصاحبها ولم تترك لهاته السيدة الغيور سبيلاً للدرك غايتها ، ولم تخبر روسو بشيء من ذلك إلا بعد أن ضاقت بما حملت ذرعاً . هنالك أفضت له بكل شيء وأوقفته على ما كلفتها به مضيفتها وتركت له اختيار السبيل لملاقاة ما قد يكون من سيئ العاقب . فلما استأذن كلامها على سماعه دهش لأنه لم يلاحظ مع ذلك أى تغيير من مدام دبناي عليه . وبقي في اختلاطه حتى إذا وصلتته كلمة من مضيفته تسأله عن شأنه انفجر انفجار البركان ورد عليها قائلاً : « ليس في طوقى أن أقول شيئاً قبل الحصول على معلومات أوفى ، وسأحصل على هذه المعلومات عاجلاً أو آجلاً . على كل حال تأكدى أن العفاف المتهم سيجد مدافعاً عنه عنده من القوة ما يلزم القاذفين التوبة أيّاً كانوا » .

هنالك رأت مدام دبناي أن تمكر به وتتلاعب بطيبة قلبه . فكتبت إليه مظهرة أنها لم تفهم مراده ثم استمرت من ناحية أخرى تسعى للحصول من تريز على بعض المكاتيب التي تريد التمسك بها ، ولئن كان قد صادفها بعض النجاح عند تريز لشدة إلحاحها وبما استعملته من الحيلة وما أوغرت به صدر امرأة لم تعد ترى في روسو أكثر من معين لها على الحياة فإن ذلك لم يفدها عند روسو إلا تشبثاً منه بالشدة والجفاء عزمًا على القطيعة مما أنفد صبرها وأحفظ قلبها . ولقد زاد في حفيظتها إن لم تبت عودة سان لامبير ما بين روسو ومدام دودتو من علاقة ولم يحصل إلا بعض جفاء شكا منه روسو لسان لامبير نفسه . على أن مدام دبناي كتبت غيظها ولم يبد منها ما يدل على التغيير على روسو أو النفور منه ، ولكنها دفعت حزب جرم لتحقيره والنيل منه . ثم عرض لها بعد ذلك أن تذهب إلى سويسرا لزيارة الدكتور ( ترشون ) ولاستشارته في بعض شئون سرية يغلب أن تكون متعلقة بحمل أو نحوه . فطلبت إلى جان جاك أن يصحبها لتبعده عن باريس وعن مدام دودتو . فتردد بادئ الأمر وتلكأ لعلمه أن الدعوة لم تكن صادرة عن إخلاص . وبرغم نصيحة ديدرو إياه أن يتبعها فقد انتهى روسو بأن اعتذر عن إحابة طلبها اعتذاراً فيه بعض الجفاء . وهنا انتهت مدام دبناي الفرصة لتشهر به ولتظهر إنكاره لجميلها في أشبع مظاهره . وناصرها في ذلك ديدرو وجرم وغيرها

ولقد كان من أثر هذه المعاملة أن مكنت من نفس روسو وفي أعماقها عقيدة أن أصحابه جميعاً يريدون الوقعة به وبلغ من ذلك حتى لم يبق لديه محل لسماح كلمة أو الأخذ بشيء يصدر عنهم . بل إنه ، ولا يزال في قلبه من الود لمدام دودتو ما لم يغير تصرف سان لمبير من مظهره . ليرفض مشورة هذه السيدة نفسها حين تشارك غيرها في النصح له بمرافقة مدام دنباي في سياحتها إلى جنيف برغم ما كان يجده من الوجاهة في الأسباب التي تقدمت بها إليه .

ولما سافرت مدام دنباي ازداد روسو وحدة وازداد أخصامه عليه شدة . فأرسل له جرم كلمة يخبره فيها بتأم القطيعة بينهما وذلك على الرغم مما تقدم به روسو إليه قصد استدامة مودتهما القديمة . وبعثت مدام دنباي إليه بخطاب يحوى غير ما اعتاد أن يسمعه منها . ولما أرسل لها يخبرها أنه يرى مع اعترافه بسابق جميلها وجوب تركه الصومعة ولولا مشورة أصدقائه عليه بالبقاء حتى آخر الشتاء لأسرع إلى ذلك ردت عليه رداً كان من القسوة بحيث لم يدع له محلاً لفكر فقد بعثت إليه بما نصه :

( ما دمت قد أردت ترك صومعتك ورأيت ذلك واجباً عليك فإن حجز أصحابك إياك ليدهشني . وإني لا أستشير أصدقائي في أمر واجباتي ولا أرى محلاً أن أزيدك على ذلك فيما يتعلق بواجباتك ) .

هنالك لم يبق لروسو محل اختيار وأقسم ألا يبقى بالصومعة بعد اليوم الثامن من وصول هذه الورقة له . وما لبث أن عرض عليه المسيو ما تاس مدير أموال البرنس دكوندى بيتاً صغيراً في طرف حديقته بمونترنسى حتى أسرع إلى الانتقال إليه . لقد أطلنا في استقصاء حوادث مقام روسو بالصومعة ( الارماج ) أن كان لهذا الزمن من أزمته حياة روسو ولتلك الحوادث التي مر بها القارئ أثر مباشر على كتابته في الملويز وفي كتاب التربية . كذلك فقد دعان لاستقصاء كل هاته الجزئيات أنها صورة من صور الجمعية الباريسية في ذلك العصر الذي ترك في التاريخ الأثر الخالد وكان مقدمة مباشرة للثورة الفرنسية . وتدل هاته الصورة أبلغ الدلالة على حال ذلك الوقت الاعتقادية والنفسية والخلقية ، وفيه إيمان نخر السوس في قوائمه ولكنه لا يزال قائماً . إيمان ضعيف يضطرب لدى كل ريح يهب عليه وينبئ عن أن السلطة الظاهرة الباقية للكنيسة ليست هي تلك الساطة

المتينة التي كانت في عصر لويس الرابع عشر أيام القرن العظيم حين كان الناس جميعاً في عبوديتهم للملك ممتلئة قلوبهم إيماناً بدين الملك. ولكنها سلطة موضع مناقشات وأخذ ورد : فإنكار عند فولتير ، وتحوير عند روسو ، وإثبات عند غيرهما . وقد أدى ذلك إلى تفكك كل الواجبات التي يحتمها الدين في نفوس الرجال والنساء وجعلهم جميعاً بعد الذي أكرهوا عليه من القسر ينغمسون في حمأة الترف ويتذوقون متلهفين لذائد الشهوات . . ونفوس رأت في هذا التفكك من قيود الدين القاسية فرجة ينفذ إليها من خلالها نور الحرية فارتفعت نحو هذا الشعاع وتريد أن تطل من هذه الفرجة إلى المتسع العظيم وراءها وتصور في خيالها ما يمكن أن يكون هنالك . وتقع هذه الفرجة لدى خيال روسو في حائط سميك هو المدنية يحجب عن الناس الضياء ويكاد ينهار فوقهم كما يحجب الفضاء الذي وراءها : تلك الحال الطبيعية الجميلة المملوءة بالسعادة والتعم والتي لا تعرف فوارق الدرجات ولا حمأة الشهوات ، بل يعيش أهلها في نعمة المساواة ممتعين بلذائد طاهرة وأخلاق أرسلت تلك الفوضى الدينية والنفسية إليها اضطراباً سمح للناس أن يعيشوا أبيقوريين لا مطمع لهم في الحياة غير اللذة ، يتخذ النساء خلالاً يعيشون معهن تحت سقوف أزواجهن ويتخذ الأزواج خليلات تعرفهن الزوجات ويحتملنهن ويسير المجموع ولا ضابط له .

والآن فإننا ننتقل مع روسو إلى مومرنسي حيث قضى شطراً لذيذاً من حياته وإن لم يسلم فيه من لواذع أمراضه المختلفة وما كان يحيل إليه من تجمع أصحابه الأقدمين لإسقاطه . ننتقل معه بعد أن ترك الصومعة وتست بينه وبين الرفيقين جرم ومدام دبنای القطيعة .

## ٨

خرج روسو من صومعته عند مدام دبنای في ١٥ ديسمبر سنة ١٧٥٧ بعدما بقى فيها مدة بدأها وانتهى منها على أسوأ حال وسار في أثنائها مرضه العقلي في طريقه شوطاً غير قليل حتى أصبح ما كان يشعر به من قبل من حب غيره الواقعة به ، وكأنه حقيقة مجسمة يرويه ويؤمن بها وينادى الناس معلناً إياهم أن عصبه تروم الفتك بسمعته وبصحته وبحياته . على أن هذا المرض لم يقطع عليه طريق عمله . بل لقد كان في تلك الفترة أكثر ما يكون إنتاجاً من الوجهة الأدبية . فكتب قسماً عظيماً من هلويز الجديدة وكتب رده على دالمبير وهو ما سنعرضه في هذا الفصل . وكتب جزءاً من كتابه العقد الاجتماعي وقرأ وبحث كتب القسيس سان بيير ونشر منها جزءاً وفي هذه الفترة كانت العلاقة بينه وبين فولتير على أحسن ما يود أن تكون . وتبدلت بينهما خطابات كلها التلطف من جانب فولتير والإعجاب من جانب روسو ، وربما يكون ذلك بعض ما عزى روسو عن أصحابه الذين رأهم يتقلصون من حوله واحداً فواحداً .

وخرج من الصومعة إلى بيت عرضه عليه المسيو ماناس في أحد أركان حديثه مونلدى بمونمرنسى وقضى أول أيام مقامه بهذا المنزل مثقلاً بالأمراض والمتاعب . وكان ما مر به وما أصابه في الزمن الأخير من احتياجات وآلام جدد عنده الأمراض الكثيرة التي كان يعانها . قال : « ولما رجعت من خيالات الصداقة وأوهامها وانقطعت عن كل ما حبيب إلى الحياة فلم يبق لي فيها ما يهونها على نفسي لم أر أمامي إلا الشرور والتعاسات التي قطعت على كل سبيل المتاع وتمنيت تلك اللحظة التي أكون فيها حراً طليق أعدائي » .

وحسب روسو بخروجه من الصومعة إلى مونمرنسى أن أعداءه قد أسقط في يدهم لقلّة ما كانوا يتوقعون منه مثل هذه الحركة . وهو يستند في ذلك إلى خطاب مؤرخ من جنيف في ١٧ يناير سنة ١٧٥٧ ومرسل إليه من مدام دبنای هذه ترجمته ( لم يصلني خطابك المؤرخ ١٧ ديسمبر إلا أمس يا سيدي . ولقد وصلني ضمن

صندوقة تحوى شتى الأشياء وظلت فى الطريق كل هذه المدة . وإنما أجيبك الآن عن حاشية الخطاب فإني لا أجيد فهم الخطاب . ولو أن للتفاهم موضعاً بيننا لسرني أن أحمل كل ما مضى على شئ من سوء التفاهم . أما عن الحاشية فلعلك تذكر يا سيدى أنا اتفقنا على أن ينقد البستانى أجره من مالى مناولة يدك أنت حتى يكون أكثر شعوراً بتابعيته لك اتقاء مثل ما حدث من سلفه من شحناء وسخافة . يذكر بهذا رد القسم الأول من أجره إليك واتفاقنا قبل سفرى بأيام على أن أرد لك ما دفعته أنت بعد ذلك . فرفضك قبول هذا المبلغ كما أشار به إلى ( شويه ) يقطع عندى بأن فى الأمر شيئاً . ولست أرى ما يررر دفعك أجر بستانى برغم اتفاقنا ودفعك إياه حتى بعد خروجك من الصومعة . لهذا أمرت برد مبلغك إليك وأرى يا سيدى بعد تذكيرك بكل ما سبق ألا ترفض مبلغاً تكرمت بدفعه لحسابى ) . كان المنتظر أن يرتد جان جاك على أثر الخطاب عن عناده وأن يراجعه سابق ضعفه ويستعطف مدام دنبائى عما قدم . ولكن مدام دنبائى كانت بعيدة عنه ولم يكن عنده من أصحابها من يتسلط عليه فيرده إليها كما كانت لا تزال دامية فى فؤاده تلك الجراح التى خيل له أن عصبية مدام دنبائى - جرم وديدرو ودلباخ وغيرهم - كانت عملت على إيغارها . لهذا لم يرد عليها ولم يقبل درهماً مما قدمت وكان ذلك آخر العهد بينهما .

واستمر فى بيته الجديد وقد استقرت نفسه وهداً خاطره واعتزم الابتعاد عن تلك التبعية للأغنياء والسيدات مما جر عليه البأساء كل أيامه . على أنه لم يبق عند عزمه هذا طويلاً . ولكنه فى هذه اللحظة الحاضرة كان فى حال نفسية كرهت إليه الناس ومعاشرتهم وزادت فى فعل مرضه الفتاك الذى سبقت الإشارة إليه . فرجع إلى أعماله واستمر يكتب خطابات هلويز الجديدة بذلك القلم الموسيقى العذب تدفعه روح مملوءة حرارة وإحساس متقد وشهوانية مريضة ، وتدعم تلك العواطف التى كانت وبقيت فى نفسه بالنسبة لمدام دودتو . وسمحت له حرية الجديدة بالاستمرار فى ذلك على طريقة منتظمة . فلم يكن ثمة مدام دنبائى لتدعوه وهو فى ساعة عمله لتسلى به ضيقها ، ولا كانت تلك الجمعيات الطويلة العريضة التى كانت تشغل القسم الكبير من وقته ، بل أصدقاء من الشبان والشيوخ من أوسط الناس الذين لا يظالوننا أن نعطيهم من أنفسنا أكثر مما نأخذ منهم .

وإنه لنى حياته الجديدة يقضى كل يوم ساعتين فى صباحه ومثلهما بعد الزوال فى مقصورة معرضة لبرد الشتاء القارس مشتغلاً بروايته فرحاً بحريته إذ جاء جزء (الانسيكلوبيديا) حاوياً مقالا عن جنيف كتبه دالمبير بمشورة من فولتير ، ويقترح ضمن معلومات أخرى إنشاء مسرح فى جنيف تمثل فيه الروايات والقطع الهزلية . وكان فولتير وقد أقام فى (الدليس) على مقربة من مدينته كالقن لم ير مشهداً لرواياته أقرب من جنيف ، فعمل على تحريض أهلها على إقامة هذا المسرح حتى يرضى بذلك شهواته وأغراضه .

فلما وقع نظر روسو على هذا الاقتراح اهتمت أعصابه وتمثل له رأى فولتير متقدماً بيد مجرمة لإتعاس موطنه . لهذا لم يلبث أن أسرع إلى ترك عمله واقتطع كل وقته للرد على هذا الاقتراح . ولم تمض أسابيع ثلاثة حتى كان قد أتم الرد وهياه للنشر ثم نشره وأسماه « خطاب إلى دالمبير عن المناظر » .

ولقد حاز هذا الكتاب نجاحاً عظيماً . فما لبث أن نشر حتى تحاطفته الأيدي وتتابع منه مختلف الطبعات ، وانبرى للرد عليه كثيرون ، وظهر أكثر من أربعمائة مكتوب فى هذا الباب . وبسبب هذا النجاح انبت ما بين روسو وفولتير وقامت العداوة بينهما عداوة لا هوادة فيها .

جاء فى الفقرة الخاصة بجنيف فى الانسيكلوبيديا والمشير بإنشاء مسرح للتمثيل بها ما يأتى « إن الناس يصدفون عن الكوميديا فى جنيف لا لأنهم ينكرون الملهى لذاتها ولكن خشية ما تنشره فرق الممثلين بين الشبيبة من الميل للتبرج والترف والتورط فى الشهوات . على أن فى الإمكان مداواة هذا الفساد بسن قوانين صارمة ترتب سير الممثلين وبمراعاة الدقة فى تنفيذها وبذلك تجمع جنيف بين المناظر والأخلاق وتتمتع بما فى كل منهما من الفائدة . فيكون التمثيل ذوق أهل المدينة ويعودهم رقة التعامل ودقة الإحساس مما لا سبيل إليه بغير هذه الوسيلة ، وتستفيد الآداب من غير أن ينتشر الفساد وتجمع جنيف بذلك بين حكمة اللقدمون وتآدب أثينا . ولدينا اعتبار آخر جدير بما عرف عن هذه الجمهورية من الروية والتدبير يدفعها لإباحة المناظر . ذلك أن ما فى النفوس من إساءة النظر إلى حرفة التمثيل وما تكيله من الاحتقار لهؤلاء الرجال الذين يحتاج إليهم التقدم ويعتمد عليهم الفن الجميل هو من أهم أسباب ما تلومهم عليه من فساد فهم يريدون أن يعتاضوا

بالمسرات والملاذ عما يتقصهم بداعي مهنتهم من الاحترام والكرامة . ولكن لو أن الممثلين أدخلوا إلى جنيف وأحيطوا بأنظمة حكيمة وأدى لهم من الاحترام والحماية ما يكونون له يومئذ أهلاً ووضعوا مع باقي الناس على مستوى واحد من الاعتبار إذن لأتيح لهذه المدينة ما لم يتح لغيرها ، ولجمعت فرق ممثلين موضع التكريم والإجلال . ثم تصبح هذه الفرقة أحسن فرق أوروبا وأرقاها حيث يلجأ إليها من ممثلينا من يعوزهم الاحترام بيننا فيرفعون بملكاتهم شأن فن دقيق . ويصبح المقام في هذه المدينة التي يراها كثير من الفرنسيين قطوبة عابسة لعدم وجود مناظر فيها مقام المسرات الشريفة كما أنه اليوم مقام الفلسفة والحرية . ويومئذ لا يجد الأجانب غريباً ما يرونه من إباحة السخريات السخيفة الخالية من كل ذوق أو أدب في مدينة لا يتاح فيها المناظر المهذبة المنظمة . وفوق هذا فإن المثل الذي تتقدم به فرقة جنيف في رقي أخلاقها وما ينشأ عن ذلك من احترام الممثلين أفرادها يكون درساً للممثلين في الممالك الأخرى ولغيرهم ممن يعاملهم إلى اليوم معاملة القسوة والشدة . وتكون هذه الجمهورية الصغيرة قد عملت بذلك لإصلاح هام في أوروبا أكثر بكثير مما يجول اليوم بخاطر إنسان . هذا الدامير يتقدم تحت تأثير فولتير يريد إنشاء مسرح للتمثيل الهزلي في جنيف مدينة روسو ومسقط رأسه . وروسو هو صاحب خطاب الطعن على العلوم والفنون واعتبارهما أساس تعاسة الناس وشقاوتهم وعليه انبنت شهرته فلم يكن معقولاً إذن أن يترك كلمة كهذه تمر وهو صلد جامد . فرد رداً مطولاً نسج فيه على المنوال الذي نسج عليه في الخطابين الأولين من الخطابة واستشهاد التاريخ ولكن على طريقة أقل حدة وأكثر تفكيراً . ولا عجب في ذلك . فقد بدأ روسو بالطعن على العلوم والفنون ولما تختمر الفكرة في رأسه وإنما كانت نزعة شعرية دفعته إليها أقدار المصادفات وأغلت أمره فيها عواطفه البدوية الجواله ونزعاته المتشردة المستوحشة. وميله للوحدة النفسانية. فلما رده عليه ستانسلاس وبورد بدأ يبحث وينقب يريد تعزيز الفكرة وإعلاء شأنها . وعلى أساس بحثه بنى خطابه في عدم المساواة وأسبابها وآثارها . وفي كل هذه الأدوار والأطوار كانت نظرية الحالة الطبيعية أو بالحرى ذلك الخيال الذي صور هو به هذه الحالة يتجسم في نفسه ويحتل مخيلته الشعرية ويملاً وجوده الأدنى ويصبح النواة تزداد كل يوم صلابه وقوة وتنبئ عليها كل يوم غلف وألياف وتستمر في طريقها إلى النضج . ولم تكن روايته التي أقرت قدم الرومانترزم في فرنسا

وفي أوروبا ولا كتابه في التربية ولا مبداه السياسي الذي وضعه في العقد الاجتماعي إلا آثاراً من تطور هذه الفكرة في نفسه ، وكان هذا التطور نزاعاً دائماً إلى الجهة الشرعية مستنداً إلى المحيطات الخطابية ميالاً به إلى الإغراب حتى أخذ كثير من الكتاب على روسو تناقضاً في الآراء كان يؤدي به أحياناً إلى ضد ما قال . وربما صح هذا المأخذ في بعض التفاصيل مما كتبه روسو . وأما مبدؤه هو ، الصادر عن نفسه فقد كان مبدأ واحداً ، وإن ظهرت فيه بعض علائم القلق فما ذلك إلا لأن القلق كان بعض علائم هذه النفس المضطربة السطح أشد اضطراب .

رأى القارئ من الكلمة التي كتبها دامبير أنه لا يرى صعوبة تحول دون إنشاء مسرح في جنيف غير تخوف أهل المدينة ما يتقدم به الممثلون للشبان من سبى المثل ورأى ما طب هو به لهذا الداء وكيف اعتبره من السهولة بحيث لا يحتاج إلى أى عناء . فكان أول ما رد به عليه روسو قوله : « ما أكثر ما أجد من مواضع للمناقشة فيما أراك بكلمة قد حللته . فهل المناظر ( الملاحى ) حسنة أو سيئة لذاتها . وهل هي تتفق مع الآداب . وهل يمكن إباحتها في مدينة صغيرة . وهل يمكن أن تكون حرفة الممثل شريفة . وهل تستطيع الممثلات أن تكن على جانب من العقل مثل سائر النساء . وهل تكفى القوانين لقطع دابر المفاسد . وهل يمكن مراعاة هذه القوانين مراعاة دقيقة . إلخ . . وهذه يا سيدى كلها أبحاث قد لا يكون قلمك غير جدير بها .

ثم أخذ يرد على هذه المسائل مسألة بعد أخرى جاعلاً رجل الطبيعة الساذج المثل الأعلى الذي يجب السير على مثله والتزوع إلى مثل حاله مقررراً أن المدينة بأذيالها من علوم وفنون واكتشافات واختراعات ليست إلا تدركاً إلى الشقاء والرذيلة . ولعل القارئ لم ينس أن روسو نسب العلوم على مختلف أنواعها من هندسة وفلك ومنطق وسواها إلى المفاسد المختلفة وإلى الميل للبطالة . وظاهر تعاليه في ذلك وإغراقه . ولكنه أقل إغراقاً في خطابه الجديد بل هو أميل إلى الصواب حين ينسب أصل الملاحى إلى ما تورثه البطالة من الملل وحين يعتبرها لذلك أثراً سيئاً لشر تجره المدنية . ولو أن الناس اعتادوا العمل وصرفوا ما زاد من وقتهم في القيام بواجباتهم نحو عائلاتهم وأولادهم لما أخذت يوماً فكرة اللهو بنفوسهم : « فإن اعتياد العمل يجعل البطالة غير ممكنة الاحتمال والضمير الحى يطفى في النفس الميل إلى تافه المسرات ،

ولكن ملال الإنسان من نفسه وثقل حمل البطالة ونسيان الأميال البسيطة الطبيعية هي التي تحوجنا إلى المسرات الشاذة .

ولما كانت فكرة التخلص من الملل هي أصل الملاحى والداعية إليها كان صنف المناظر إنما يعنيه منه ما يبعثه للنفس من لذة لا ما يقدمه لها من فائدة . فإن وجدت فيها الفائدة فمرحباً . ولكن مسرة خاطر هي غرضها الرئيسى فمادام الشعب يبتهج بها فقد أدت هذا الغرض : وطبعى أن الشخص الذى يريد إدخال السرور إلى نفوس الناس مضطر أن يميل مع ميولهم وأن يجاريهم فى أهوائهم فإذا نزعته به نزعاً للطعن على شىء عندهم بلغ من التلطف فى ذلك حتى لا يترك طعنه أثراً يزعجهم . وكل مؤلف للملاحى يتعد عن انتهاج هذه الخطة محكوم عليه فى رأى روسو بالسقوط وعلى عمله بالبوار . « ومن ثم فلا يصح أن تنسب للمسرح أية قدرة على تغيير العواطف أو الأخلاق الملزم هو أن يسير وراءها ويزيدها رواء وبهجة . ومن كتب ليواجه الذوق ويصادمه كان يكتب لنفسه لا لسواه . »

« ومن هذه الملاحظات المبدئية يتضح أن الأثر الذى تركه الملاحى إنما يقتصر على تقوية الأخلاق الموجودة كما أنه يزيد الميول الفطرية ويجدد فى النفس نشاط كل الشهوات . » ويزيد هذا الاستنتاج قوة أن المؤلف التمثيلى يحتهد غالب الأمر لتبرير مركز أبطاله وإظهار أعمالهم طبيعية قدر الممكن . ولو أنه جعلهم جميعاً موضع طعن وتقرز لانصرف الأكترون عن روايته لأنهم إنما يطلبون فى التمثيل ملهى لقتل وقتهم . . . وهذا النوع من عناية المؤلفين غير خاف على أحد . فما من رواية كان البطل فيها ميالاً لأفطع النقائص بل الجرائم إلا جاهد المؤلف لجعل من نقائصه وجرائمه بعض موضع للعطف عليه والميل له « ولو أن جرائم فدرو ميديا عرضت على الناس لكانت كراهمهم لذين الشخصين أشد لدى سماعهم قصصها منها بعد إذ يرونها على المسرح . »

وأما ما يقال من أن التمثيل مدرسة يُعلّم فيها فاضل الأخلاق بتحييده وينهى فيها عن المنكر بتقبليحه فهراء لا محل له ؛ لأن الناس أسرع ما يكونون سامة للنصيحة الجافة ، بل تراهم يميلون غالب الأمر إلى عدم التصديق بإخلاصها . وهمهم الأكبر أن يروا على المسرح صورة ما فى الحياة الحقيقية مما يستفز منهم عاطفة الغضب أو الرضا والحب أو الكراهية والاستحسان أو الاشتزاز أو غيرها . ويميل كل منهم

لذلك معتبراً فيه موضعاً للهوه لا محلاً لإصلاح عوج نفسه . ولو أن أحداً استطاع هذا الإصلاح لكان له من مناظر الحياة الحقيقية ومشاهدها ما يدعوه إليه . ولكن الناس يسرون في الحياة بغرائز وأخلاق ولدت معهم أو كسبوها من الصغر وقواها فيهم الوسط الذى يعيشون فيه ، ولن يهدم ممثل في سوية ما بنى الوجود في زمان طويل . وإنما يشجع الممثل فينا آميالننا ويدفعنا إلى الإغراق فيها بما يملق به قلوبنا أو مصالحننا .

وهذه الفكرة أبداها روسو في كلمته لد المير حين قال : ( قلب الإنسان مستقيم فيما لا يتعلق بشخصه . فكل منا يؤازر العدل إذا اقتصر موقفه على مشاهدة خلاف يقع أمامه . وليس من سيئ الأعمال مالا يستثير سخطنا ما دمنا لا نفيد لأنفسنا من هذه الأعمال شيئاً . ولكن عواطفنا تفسد متى كان لصالح لنا في الأمر مدخل . حينذاك ترانا نفضل الشر الذى يفيدنا على الخير الذى يصبو إليه طبعنا . وبذلك يعين الوجود الشرير على أن ينال فائدتين . واحدة يفيدها من ظلمه غيره والأخرى يستفيدها من عدل سواه . وأى فائدة له أكبر من أن يطالب الناس كلهم أن يكونوا عدولا إلا هو فيرد كل منهم إليه ما هو من حقه من غير أن يرد هو لأحد منهم حقاً . والشرير لا شك يحب الفضيلة . ولكنه يحبها صادرة عن سواه ليستفيد هو منها ولا يرغب فيها لنفسه لما يكلفه إتيانها من المشقة . مثل هذا الشخص يرى في التمثيل ما يمكن أن يراه في أى موضع آخر . يرى دروس فضيلة تلقى للشعب على أنه ليس منه وإناساً يضحون كل شىء من أجل واجبهم على ألا يطلب أحد منه شيئاً ) .

وهل ترى الواحد منا إذا ذهب إلى التمثيل فتأثر بمنظر من مناظره يبقى تحت هذا الأثر زمناً طويلاً؟ أتراه إذا بكى لمصاب محزون أو حنق على شرير كثير الجرائم أو ألعج حياً برجل فاضل أو بامرأة عفيفة يبقى في حزنه أو حنقه أو ولعه أكثر من سوية خروجه من باب الملهى؟ بل لو أنه عرضت له مصلحة لحظة يكون التأثير بالغاً منه أشده مستدراً منه مدمعه أفتراه باقياً على تأثره حتى ليضحى مصطلحه بسبب هذا التأثير؟ كلا! « وقد ذكر تاسيت أن فالريوس الآسيوى دافع عن نفسه لما اتهمته مسالين في نفسها وأرادت به الهلاك عند الإمبراطور دافعاً تأثر له هذا الأمير واستمطر عبرات مسالين نفسها . فانعطفت هى إلى غرفة مجاورة حتى يزول ما بها ولكنها لم تذهب قبل أن تسر في بكائها إلى فتليوس ألا يطلق سراح المتهم . وما وقع

نظري على متفرجة أبكاها التمثيل إلا ذكرت دموع مسالين وهذا البائس فالربوس الآسيوي .

يضاف إلى ما سبق أن التمثيل لا يمثل صورة الحياة الحقيقية أبداً : إنما هو فكرة المؤلف يلبسها صور أشخاص يدعهم خياله وينطقون بلسانه الداخلى الذى يعبر عن شخصية الفرد وفكرته فى كيفية السلوك بين الناس ليكون مقبولاً بينهم وممتعاً بنعم حياته الاجتماعية .

« وكذلك نرى كل شيء يضطربنا لإطراح هذه الفكرة السخيفة فكرة إمكان توجيه المسرح وجهة الكمال باستخدامه للمصلحة العامة » فهو لا يهذب الخلق ولا يناصر الفضيلة ولا يمثل الحقيقة ولا يزيد على سخرية أبدعها الناس لإضاعة الوقت . قال ميرالت : « من فاضح الخطأ أن يغرينا الوهم لنحسب ممكناً أن نرى على المسرح ما بين الأشياء من صلة حقيقية . ذلك أن الشاعر يلجأ غالب الأمر لتحويل هذه الصلات حتى توافق ذوق الشعب . فهو يحقر من شأنها فى ( الكوميك ) ويضعها دون المعارف . ويكبر أمرها فى ( التراجيك ) لتتحمل ما يريد من بطولة فتصير بذلك فوق مطمع الإنسانية . وما كان فوق منالنا بله مطمئناً لا يستدعى منا أكثر من التحديق إعجاباً به أو عطفاً عليه أو تفرزاً منه . فإذا انتهينا من التحديق رجعنا إلى عالم الحقيقة معتبين أن أمضينا من الحياة وقتاً غير مملول . وما كان دون متعارفنا كان موضع استهزائنا وسرورنا بعظمتنا الكاذبة .

لم يقف روسو من نقد التمثيل عند هذا الحد . بل لقد وجه إلى ( التراجيديا ) مذمة أنها تستنزف من دموع المتفرج وشفقته بما لا يبقى عنده محلاً لدمع يراق أو شفقة تبدو أمام آلام الحياة الواقعة . أما الكوميديا فترمى لغرض تعيس . ذلك أنها لا تطلب من الإنسان أن يكون فاضلاً أو غير شرير ، بل أن يكون بعيداً عن موضع سخرية الناس وانتقاصهم وذلك بأن يندمج فى سلوكهم ويسير على متعارفهم . وأكثر متعارف الناس الكذب والأضاليل .

وهذا مولير شيخ كتاب الكوميديا الفرنسيين . « اقرأه ثم انظر كيف يسخر من غير مبالاة بتعكير صفاء النظام القائم عليه الجمعية لغير سبب إلا ليضعف أمازيحه وسخرياته . انظر بأى جرأة مخزية يعبث بأقدس الصلات ويهزأ بأوجب الحقوق احتراماً : حقوق الآباء على أبنائهم والرجال على أزواجهم والسادة على

خدمهم . هو بلا شك يصل من ذلك ليضحكنا . ولكن مهارته في هذا تجعله أكثر مسئولية حيث يجذب العقلاء أنفسهم ليشهدوا من غير حتى سخريات كان من الواجب أن تستثير غضبهم واشمئزازهم . قد يقال إنه يطعن النقائص . وإنى أدعو من شاء ليقارن بين النقائص التي يحاربها والنقائص التي يناصرها ثم ليحكم أى أصحابها أجدر بالملامة : فهل هو ذلك الرجل من أوساط الناس يدعوه بلهه وغروره ليحسب نفسه بين الأكابر أو هو ذلك الكبير اللص الذى يسرقه . أم تُمثل الرواية التى أشير إليها هذا الأخير الرجل الشريف وموضع الإعجاب . وهلا يصفق الناس طرباً بكل نكتة يؤذى بها الشخص الآخر - وهل هو ذلك الفلاح يبلغ منه الحمق فيتزوج من آنسة رقيقة مهذبة أو هى تلك الزوجة التى تسعى لتلويث شرف زوجها . فما بالك برواية يصفق فيها الحضور لخيانة وكذب وتبجح هذه الأخيرة ، ويضحك ساخراً من زوجها الذى لم يلق فى نظرهم إلا الجزء الذى يستحقه - والبخل نقيصة لا شك كبرى - لكن أليست سرقة الابن أباه نقيصة أكبر منها - ثم ترى هذا الابن لا يحترم أباه ولا يأتى أن يوجه إليه ألف مسبة . فإذا غاظ الأب ذلك وبلغ منه الغضب حتى استمطر على ابنه اللعنات أجابه الابن فى سخرية : إنه فى غنى عن أعطياته . قد تكون النكتة ظريفة رائعة ، لكنها ليست لذلك أقل استيجاباً للوم ، والرواية التى تجعل الابن الوقح الذى قالها موضع العطف إنما هى مدرسة لفساد الأخلاق .

على أن أهم روايات موليير - ( الميزانترب أو الطيرة ) - تحتل من هذا النقد الذى وجهه روسو إلى رواياته عامة القسم الأكبر والأهم . فهذه الرواية تكشف لنا أكثر من كل رواية سواها عن الغرض الذى وضعه موليير نصب عينه فى تأليف رواياته وتسمح لنا أن نقدر نتائج هذا الغرض تقديراً دقيقاً . فإنه وقد أراد أن يمتدحه الشعب قصد إلى ما يتذوقه الأكثرون منه من صفات وخلق من صاحب هذه الصفات بطلاً ثم جعل من مضادات هذه الصفات شخوصه المضحكة . ومن ثم يتضح أنه لم يكن يرمى إلى حسن تصوير الرجل الفاضل ، وإنما كان مرماه مدح رجل الجمعية الطريف *Homme du monde*

وهو إذن لم يكن يقصد تقويم النقائص ولكن ستر العوج الظاهر . ولقد وجد من الالتجاء للنقائص نفسها آلة لدرك هذا الغرض . لذلك فإنه لما أراد أن يجعل

ما ناقض صفات الرجل الظريف ، رجل الجمعية ، موضع المزو العام إختار الدور الذى يمجّه الناس : دور عوج الفضيلة بالتشبيث بها . وذلك ما عمله فى ( الميزانترب ) . والميزانترب كما يعلم القارئ هى تلك الرواية البديعة التى وصف بها مولير الرجل الذى لا يعرف فى الحق والفضيلة مداجاة ولا موارد والذى يقول للأعور فى عينه إنه أعور غير مهتم بصياغة ذلك فى قوالب الرقة والتظرف والنكتة الخلافة التى اعتادها القرن التاسع عشر فى فرنسا - والنساء والرجال عنده فى ذلك سيان . فهو لا يعرف كيف يطعن عند سيدة على قبة تلبسها سيدة أخرى فإذا لبست الأولى مثلها امتدحها قائلاً إنما جمال القبة بجمال لابستها . ولا يهتم وقد عرض عليه ( أورنت ) الشاب منظوماً شعرياً وضعه ويريد أخذ ربه فيه أن يقول له آخر الأمر : إن الأولى بهذا المقطوع أن يطرح فى المرحاض . ويصل به التشبيث للفضيلة ليعلن كراهيته للناس جميعاً ( لأن بعضهم شريرون والبعض فى الشر متسامحون ) . هذا الرجل هو ألسيست . وقد قابل به مولير فى الرواية فيلنت الظريف المتحجب صديق كل الناس ولحلو اللسان لكل من حضر منهم . قابله به ليجعل ألسيست موضع ضحك الحاضرين . وهذا هو ما هاج روسو ضد مولير وجعله يعتبره أثمياً أيماً أثم .

فإذا كان هذا هو شأن مولير فما بالك بغيره . وهل يعشى أحد فلا يرى ما يثيره هؤلاء فى رواياتهم من السموم الفاتكة بالأخلاق المضعفة لهمم اجتناباً لمسرة الجمهور ونرضاه . وإنك لترى أكثر ما ترى النساء على المسرح أخذت بنواصي العرفان مدبرات حكيمات وما أبعد هذه الصفات عنهن ، وإنما يضع المؤلف الحكمة التى اختص بها هو وجنسه فى أفواههن وفى تصرفاتهن وفى حركاتهن فيبعث إلى نفوس النساء غروراً وتياً ويضعف الرجال أمامهن . وكيف لا يضعفون وهم يرون فى فم تلك المتشدقة على المسرح بدائع الأمثال وروائع الحكم فيحسبون للنساء فوق سلاحهن الطبيعى يتسلطن به على الرجال - سلاح التناسل - قوة أخرى من عقل راجح وذكاء متقد وفكر ثاقب . والحقيقة أن هذه القوة إنما هى قوة المؤلف وليس للنساء فيها أى نصيب . وتسلط النساء وضعف الرجال أمامهن فيه على الأخلاق العامة وعلى الملكات والقوى الإنسانية خطر ودمار كبير . لا يعجب القارئ من هذه اللهجة فى الكلام عن المرأة . فقد كان روسو قليل

الثقة بها قليل التقدير للمكاتها . يحسب فيها مثلاً للشرومغناطيسياً يجذب الرجال على رقيهم عنها في الجنس إلى الضعة والحقارة . ولذا نصح في آخر الخطاب الذي نحن بصدهه ألا يختلط الرجال بالنساء إلا في ظروف خاصة . كما أن ما رسمه لتربيتها في كتاب ( أميل ) لا يدل على احترامه لجنسها . ويخيل لنا أن هذا الخلاف بين المفكرين في شأن النساء لا يمكن أن ينتهي إلا إذا تمكن النساء أنفسهن من وضع حد له بعملهن . وأما ما من مقصورات على القيام بالوظيفة الطبيعية اللاتي يشابهن فيها إناث كل أنواع الحيوان قاصرات دون بلوغ أعلى المراق الفكرية التي اقتص بها الجنس الإنساني فسيبقى من بين الرجال رحماء بهن وسيبقى إلى جانب هؤلاء الرحماء عدول قساة في عدلهم مستمسكون بأن حقوق الأجناس وحقوق الأمم لا تتعلق بسوادها الأعظم ولكن بعقريه النابغين فيها وقوتهم واستطاعتهم رفع هذا الجنس أو بعث الأمة إلى صف الاحترام والاعتبار . فما لم تخرج من بين النساء نابغة تقودهن جيشاً لتقرير حقوقهن فستبقى هاته الحقوق منحاً تحت رحمت المانحين إن شاءوا أفاضوا في الكرم أو شاءوا ضيقوا الخناق .

ولسنا الآن بمعرض مناقشة هاته النظريات فلنناقشها مكان آخر . وإنما يحسن بنا وقد وصلنا إلى ما وصلنا إليه من معرفة روسو أن نتساءل عن السبب الذي يجعله أميل إلى القسوة في الكلام عن النساء مع ما كان له من الوله بهن . لقد كانت حياته كلها سلسلة تودد إلى السيدات وتعشق إياهن . فكان تشبابه مشتركاً بين مدام دفارانس ومدموازيل دبرى ومدام بازيل ومدام دى لارناج . ثم انتقل بعد ذلك ليتحجب إلى مدام دبناي ومدام دودتو وسينتقل من بعدهما إلى مدام دلكسمبور وإلى من سواها . فكيف به وهذه حاله وذلك تصرفه ميالا للانتقام منهن . . . أو - على الأقل - لتطبيق مبادئ العدالة القاسية عليهن ؟

يقول أخصام روسو : إن هذه إلا نزعة من نزعاته المتهوسة التي كانت تجعله يتناقض مع نفسه في كل شيء . فينادى بالمساواة والحرية ويطعن على الاستبداد وعلى امتياز الأشراف وهو في كل حياته عائش في كنف العظماء والعظيمات مطأطأاً لهم رأسه ، ويطعن على العلوم والفنون وقد أمضى حياته كلها ينقل نوت الموسيقى . ويكتب الروايات الغرامية وينقد التمثيل هذا النقد المره وهو كاتب ( الميزجالانت . وملاك القرية ) وغيرها من الروايات التمثيلية ، ويكتب في التربية ليودع أبناءه ملجأ

اللقطاء . فطعنه على النساء لم يكن إلا متابعة للسير في طريق مناقضة نفسه بنفسه .

ولسنا ننكر على روسو بعض التناقض بل الكثير منه . كلا ولا نحن نقول إن أعماله كانت تسير على مقتضى ما تدفع إليه أفكاره . ولكن هل من بين المفكرين من يسير في حياته العملية على آرائه ومبادئه النظرية . إنا جميعاً مكرهون على أن نعيش تحت حكم الوسط ولو خالف ذلك ميولنا وأهواءنا ، لأن الوسط هو الجو المستطاع في الحياة على ما يملؤه من مكروبات وجرائم فاسدة . ولكننا غير مكرهين على أن نفكر كما يفكر الوسط . ذلك بأن الإنسانية استطاعت بجهداتها العظيم أن تحل قيود الفكر وأن تترك للمفكر أن يخرج في جو غير عالم المادة المحيط به وأن يرتب في ذهنه صورة الحياة على نحو ما يريد ، وأن يخلق لهذه الصور منطقاً يثبت إمكان بقائها في ظروف سعيدة . لكن المفكر ملزم أن يعيش في حياته المادية عيش سواه أو دون هذا العيش بالقناعة بما دون الكفاف . ولو كانت القناعة من شأن رجال الأدب في القرن الثامن عشر لثبت تناقض روسو مع نفسه . ولكن هؤلاء كانوا جميعاً يعيشون عيش ترف حرم روسو منه شهوته . ومنعه عليه غروره وغلواؤه الكاذبان .

فانتقاص روسو من النساء إذن لم يكن مجرد اندفاع في تيار التناقض ولا ميلا منه للإغراب . ولكن روسو كان من الأشخاص العاكفين على أنفسهم الميالين لتحليل ما يدور حولهم . وكان تقديره الأكبر للفكر والنظر . فلما رأى النساء أميل في هذا الباب للتافه والضعيف بطبعهن لم يلبث أن حكم عليهن حكمه القاسي غير مهتم بقيمة الأمومة ولا بشدة العاطفة ولا بقوة الضعف النسائي . وزاده قوة في يقينه ما كان عليه أكثر سيدات الطبقة التي أخذته في كنفها من ادعاء الأدب . ولاشئ أتعس من دعوى النساء الأدب بله الفلسفة .

هذا هو أساس رأى روسو . وهذا هو ما جعله يرفع عقيرته ضد الحكم التي يضعها المؤلفون الروائيون في أفواه الممثلات لما في ذلك من استخضاع الرجال لجنسهن .

والمسرح يجر ضرراً آخر حينما يمثل العواطف وبالأخص عاطفة الحب على شكل يضعف النفوس ويذلها حتى لا تمتنع عن الانقياد وراء هذه العاطفة

ولو على حساب الفضيلة . وقد بلغ المؤلفون أقصى مدى التفتن في ذلك ولم يعدوا يوماً أن يجدوا من الأعذار ما يبرر للمحب تضحية الواجب تحت أقدام عاطفته وعشقه . وهذا راسين أحد كبار مشايخ كتاب القرن السابع عشر الروائي يقدم لنا في جل رواياته المثل عن ذلك . ولعلك تذكر يا سيدى رواية أظننا حضرناها معاً من بضع سنين وأحسنا لمشهدنا بسرور لم نكن نتوقعه . تلك رواية (برينيس) من روايات راسين . فلقد كان ميل من حضر هذه الرواية في بدايتها ميل تحقير لهذا الإمبراطور الروماني الذي يتردد كأخس الأخصاء بين معشوقته وواجبه وازدراء لما يصحب به هذا التردد المخجل السافل من توجهات مخيفة تحط من مقامه الذي يعطيه التاريخ شيئاً من شبه القداسة . أما آخر الرواية فقد انقلب الأمر وصار الجمهور يشكو حال ذلك الرجل الذي كان يحتقره ، ويهتم لأمر عاطفة كان يجعله من قبل أئيماً بسببها ويتأوه في دخيلة نفسه إذ سيكره هذا الملك عليه من تضحية شرف بلاده . هذا هو الإحساس الذي كان يدور بنفس الحضور جميعاً . فلقد كان لدور (تيتس) أن يحدث في النفوس أثره المرجو لو أن هذا الملك لبس الثوب الذي يليق به . لكن الناس جميعاً شعروا وإنما كانت كل الأهمية لبرينيس لأن حبها هو الذي استدعى الحادث الحاسم وحدد نوعه . وليس ذلك لأن توجهاتها وتأوهات المستمرة كانت ذات أثر مؤلم في أثناء الرواية ، ولكن لأنها في الفصل الخامس سكنت عن التأوه ونطق مظهرها المحزون وعينها الجامدة وصوتها المختنق عن ألم مستسلم مجاور لليأس فاستدرت عيون الحاضرين حين حبست هي عينها عن البكاء . فهل معنى ذلك إلا أنهم تخوفوا ما قد ينالها من طرد وما يصيب به ذلك قلبها من ألم . وهل لم يتمنوا جميعاً أن يطاطى (تيتس) رأسه ولو دعا ذلك للمبالغة في عدم احترامه . أفليست هذه رواية قامت بالغرض الذي وضعت من أجله وعلمت الناس كيف يجتازون محن الحب ويحاربون ضعفه .

وكما يضعف المسرح الرجال أمام النساء فإنه بما يمثل فيه ينقص من احترام الشباب للكهولة وللشيخوخة ويضطر العجائز إلى التشبه بالشبان في مرحهم وطههم وينزهم بذلك إلى درك ما كان أغناهم عنه .

ليس إذن للتمثيل فائدة من أى جهة نظرنا إليه بل هو في عجزه عن تقويم الأخلاق يستطع كثيراً إفسادها . فهو يزيد شهواتنا تحكماً فينا ، ويفسد أعصابنا ،

ويضعفنا عن مقاومة أهوائنا ، ولا يكون لما يُحَبَّذ فيه من الفضيلة أثر إلا بمقدار ما يرضى أنفسنا رضاً مؤقتاً .

أما الممثلون فلا يستطيعون أن يكونوا مثال الفضيلة لأن وظيفتهم تقضى لهم بشيء من الإباحية المبهرجة يلزمهم نوعاً من الحياة لا يتفق مع مبادئ الصراحة والإخلاص . وكيف يرجى من شخص يقضى أهم وقته وأكثره ليكون غير نفسه أن يكون مثال الصدق والعدالة أم كيف نطالبه بالامتناع عن سلوك سبيل الإباحة في أعماله وحياته بينما يقتضى منه ووسطه الإباحة التامة ؟

« ثم ما هي براعة الممثل ؟ هي أن يقلد سواه وبليس خلقاً غير خلقه ويظهر غير نفسه ويهتاج ودمه هادئ بارد ويقول ما لا يجول بخاطره بهوادة طبيعية ، كأن ما يقوله هو من بنات أفكاره ، وينسى مركزه لكثرة ما يقف في مركز سواه . وما هي حرفة الممثل ؟ هي حرفة يعرض بها الشخص نفسه أمام الجمهور بثمن معين ويعطيهم حق تحقيره والاستهانة به مقابل الأجر الذي يدفعونه ويبيعهم شخصه بيع السلع المعروضة في السوق . وإني أستحلف كل مخلص هلا يشعر في أعماقه أن بيع الشخص نفسه على هذا الشكل أمر ذئب سافل ، وأنتم أيها الفلاسفة يا من تدعون أنكم فوق الخزعبلات المتداولة . أفلا تموتون خجلاً إذا ألبستم ثياب الملوك وقدمتم لتقوموا أمام الجمهور بدور غير دوركم ولتعرضوا جلالكم لآزدرائه وصخبه . . فالممثل إذن لا يفيد في الحقيقة من حرفته إلا الدناءة والكذب وباطل الغرور والعبودية السافلة التي تجعله صالحاً لأن يكون كل الأشخاص إلا أشرفهم وأكرمهم - إلا أن يكون رجلاً » .

لكن التمثيل والممثلين هم خلق مدنية معينة وعصر معين فلا يمكن أن يكونوا خوارج على حياة بلاد وعصر أبتاهما . إنما هم قسم من الحياة في ذلك الزمان والمكان ومكروب من مكروبات جو المدن الكبرى أصبح جزءاً منه لا يمكن انفصاله عنه ، ولكن الجريمة كل الجريمة تلقى جو المدن الصغيرة الصحيح الصافي بهذا المكروب الفتاك .

وهذا هو ما ينادى به روسو حين يقول : « في مدينة كبيرة ملأى بالدسائس والعاطلين ومن لا دين لهم ولا مبدأ ممن أفسد خيالهم الكسل والبطالة وحب الشهوات وكثرة الحاجات ، في مدينة كبيرة لا قيمة فيها للأخلاق ولا للشرف ، وحيث

يسهل على كل إنسان أن يظن على الناس حقيقة أمره وألا يظهر لهم إلا ما يفيد مركزه ثم هو لا ينال من الاحترام إلا على مقدار ثروته . في مثل هذه المدينة يتعين على أولى الأمر أن يستكثروا من الملاذ المباحة وأن يسعوا لجعل كل ما يوجد منها رقيقاً جذاباً إلى حد يبعد عن الأفراد ما يستهويهم إلى « واهها بما هو أشد منها خطراً . ومادام عمل الناس نبت شر كله ، ومنعهم عن العمل منعاً لهم عن مقارفة الآثام . فإن إضاعة ساعتين تخدم فيهما حركة الشر هو بمثابة محو جزء من اثني عشر جزءاً من الجرائم التي ترتكب . فإن ما يقع في الملاهي وملاجئ العاطلين من نعمة وغيبة وما هو شر منهما إنما هو كسب للآباء في شرف بناتهم أو زوجاتهم وفي مالهم أو مال أبنائهم .

« أما في المدن الصغيرة القليلة السكان حيث كل فرد رقيب بطبعه على كل من سواه لأن كل فرد واقع تحت النظر العام وحيث يسهل على الشرطة وأولى الأمر المراقبة والتدقيق فيجب اتباع مبادئ مخالفة لتلك كل المخالفة . فأما إن كان في المدينة صناعات ومهن وفنون فالواجب اتخاذ الحيطة حتى لا يكون لدى الآهليين من دواعي اللهو ما يضعف في نفوسهم الاغتياب بهذه المهن والتلذذ بالعمل فيها بما يزيد في ثروة الأمير وتقتير الرعية . وأما إذا كان الناس يعيشون عيش البطالة ولا تجارة لهم فيجب ألا يحجب إليهم الخمول الذي هو أصيل فيهم بطبيعة العيش البسيط الذي يعيشونه . بل يجب على العكس من ذلك أن يكونوا بحيث لا يطيقون البطالة بالتزامهم خلق أعمال مفيدة يضيعون فيها ما فاض من وقتهم .

« وإنى أرى الناس في باريس - وشأنهم في الحكم على الأشياء أن يأخذوا بظواهرها لعدم وجود فراغ لديهم يسمح بالإمعان في بحثها - يحسبون أن سكان مدائن الريف التي يوهم ظاهرها لصاحب النظرة الأولى بالهمود والبطالة هم قوم غرقى في سكينتهم المتبلدة ليس لهم من الحياة إلا عيش الاستنابات المميت أو الشحناء والخصومة ، وهذا خطأ سرعان ما يرجع الإنسان عنه متى ذكر أن الأكثرين من رجال الأدب المشهورين في باريس وأن معظم الاكتشافات المفيدة والاختراعات الجديدة إنما تجيء إليها من هذه الأرياف الحقيرة في نظر أهلها . . ولو أنك بقيت زمناً في إحدى هذه المدن الصغيرة ، لم تحسب فيها بادية الأمر إلا إمكانات لا إرادة

لها ، لرأيت ، فضلاً عن أن الناس أكثر تعقلاً من القردة أهل المدن الكبرى ، أنك لن تعدم أن تجد في بعض أركانها رجلاً دقيقاً يدهشك بمواهبه وأعماله ويدهشه منك أن تعجب به ، ويريك معجزاته في العمل وفي الصبر والصناعة معتقداً أنه إنما يريك أشياء معتاداً نظرها في باريس . تلك هي بساطة العقبرية الحقة . وليس هذا الرجل دسائساً ولا كثير الحركة إذ هو يجهل طريق الألقاب والثروة ولا يفكر في البحث عنهما ولا يقارن نفسه بأحد . كل ما يصدر عنه راجع إلى ذاته . لا نهزه مطاعن الغير وقل أن تسره مدائحهم . فإذا قدر نفسه لم يهتم بالسعي ليضعها في المركز الواجب لها بل يبقى ممتعاً بذاته من غير اغترار .

فمن الجريمة إذن تحويل أنظار أهل هذه المدن الصغيرة ، حيث العمل الجهد والتواضع الجميل ، عن أعمالهم إلى اللهب الخلق مسارح يضيعون وقتهم فيها ويعتادون البطالة بها ، وتكون حملاً عليهم في نفقاتها ومثلاً سيئاً لهم بممثلها الذين لا يستطيعون أن يكونوا صالحى الأخلاق . وليس معنى هذا أن يحرم هؤلاء الناس من كل متاع ، بل يمكن أن تكون لديهم أنواع المتاع البريئة التي عرفوا كل أيام حياتهم والتي تليق دون سواها بهم . وقد عرف روسو قوماً يقيمون في جبل على مقربة من نيوشاتل ويعيشون ممتعين بالحياة أجمل متاع لأنهم يشتغلون معظم وقتهم ويقضون ساعات الراحة في لهو برى . فكل منهم يعرف الموسيقى وكلهم يغنى ويحب الغناء وكلهم يسر أكبر السرور بتمضية وقته مع الآخرين يتحدثون ويتناجون مبتهجين فرحين .

وهنا يذكر روسو مطولا ما يدعوه للاعتقاد بأن الممثلة لا يمكن أن تكون امرأة فاضلة وبضرورة عكوف المرأة على منزلها واشتغالها بالوظائف التي أعددتها الطبيعة لها ، ويرد بشدة على الكتاب الإياحيين الذين يقولون لم لا تتمتع المرأة بما يتمتع به الرجل ، وهل يعطى لنصف الإنسانية حق يسلبه الآخر قال : « يقولون وكيف يكون مزرياً بالمرأة ما لا يكون مزرياً بالرجل ولم يعد جريمة لأحد الجنسين ما يباح للآخر ؛ كأن كانت نتائج عمل الطرفين واحدة أو كان أدق واجبات المرأة لا ترجع إلى وجوب أن يكون لكل طفل أباً » .

ومن الجريمة إذن أيضاً خلق مسرح في جنيف وهي مدينة صغيرة يقطنها عشرون ألفاً يعيشون عيش الفضيلة ويتمتعون بأنواع بريئة من اللهو تسلى وقتهم

ولا تصيب مدينتهم بسوء . . وسيان ارتاح الأجانب للمقام بها أم هم لم يستريحوا فليس من العدل ولا من حسن السياسة إفساد أهل الدار على أنفسهم لإدخال المسرة على الغريب النازح . كفى الباريسي الذي يحضر إلى مدينة كلفن أن يرى ما فيها من جميل المناظر وفاضل الأخلاق . وربما كان له في الابتعاد عن موبقات تلك المدينة المضطربة ما يهدئ أعصابه ويعيد إليه بعض سكينته .

أما المناظر البريئة التي يرى روسو ضرورة الاستكثار منها في المدن الصغيرة استبعاداً للسامة والقلق من النفوس فيجب أن تكون على حد عظيم من البساطة والمقاربة للحال الطبيعية . ولو أن أهل جنيف كانوا على الفطرة الأولى وكانت مجاورتهم للمدينة الفاسدة لم تفسد عليهم بعض فضائلهم لفضل لهم روسو رقص الشابات العاريات كما كان يحدث في إسبرطة . ولكن ذلك قد أصبح للأسف غير ممكن بفضل هذا الفساد فلم يبق إلا أن يستزيد أهل جنيف مما عندهم من أنواع الرياضة وأن يقيموا أعياداً عدة للسباحة والرماية وغيرهما : « أما أن تنقل إليها هذه الملاهي التي تشتمل عدداً قليلاً في قاعة مظلمة يبقون فيها سكوتاً مبهوتين لا ترى أعينهم إلا المعازل والسيوف والعساكر والصور المفزعة صور الاستعباد وعدم المساواة فلا . . بلى أي هذا الشعب السعيد . ليست تلك أعيادكم . إنما أعيادكم أن تجتمعوا في الهواء الطلق تحت السماء الحرة تتمتعون بهناءكم وسعادتكم . . ولا تكونن مسراتكم مخنثة ولا مملوكم سلعاً . ثم فلا يرسل ثمت إليها أي شيء مما يشعر بالخوف أو المنفعة . بل لتكن حرة كريمة مثلكم . ثم لتضيء الشمس ملاعبكم البريئة تكن قد أضاءت أكرم ما يمكن أن يسطع عليه نورها » .

أما في الشتاء حيث يحول الطقس دون مثل هذه الملاعب والأعياد فليجتمع الشبان والفتيات في بهو متسع تحت نظر ورقابة الأكابر والعجائز - لأن روسو لا يميل إلى اجتماعهم عادة أحراراً - وليكن أهم غرض من ذلك أن يقع كل شاب على الفتاة التي يعد منها للمستقبل زوجاً . . وقد رتب روسو هذه الاجتماعات ترتيباً دقيقاً وأراد أن يجعل لرئاستها حكماً ينظر في كل ما يحدث فيها .

هذا هو خطاب روسو إلى دالمير عن المناظر . قال جول لمر ( وكما قدم روسو للثورة لغتها في خطابه الأولين فهو بخطابه هذا يعين لها أعيادها - وكذلك فسيين لها في عقده الاجتماعي فكرتها عن الحكومة ) .

وانا نشارك روسو عقيدته في أن المسرح لا يمكن أن يكون موضع درس أو تقويم للأخلاق ، ذلك لأن الأخلاق تتكون بالزمان وفي سنين طويلة وتحت آثار قوية شتى فلا يمكن أن يغيرها مؤلف أو ممثل في سوية . ثم إن اتجاه الإنسان ساعة ذهابه للمسرح يختلف عن اتجاهه ساعة ذهابه لقاعة الدرس بل هو يعاكس هذا الاتجاه الأخير ويناقضه . فالواحد يذهب إلى المسرح بفكرة اللهو وإضاعة الوقت في إمتاع العين والأذن وفي إراحة النفس من عناء عمل الحياة . ولاشك في أن الاتجاه والفكرة التي تحركنا نحو شيء من الأشياء هي التي تعين الأثر الذي يتركه هذا الشيء في نفوسنا ، كما لا شك في أننا حين نذهب بفكرة إضاعة الوقت نكون أبعد ما نكون عن فكرة الدرس والاستفادة .

ثم إن ما نراه على المسرح من الصور والمناظر وما نسمعه من مختلف الآراء ليس من شأنه أن يدفع إلى نفوسنا عقيدة تستقر عندها وتنطبع فيها ، بل هي لذة ساعة نلهو فيها بهذه الصور والمناظر والأفكار ثم ننساها وتبقى عندنا في حيز الرواية والحكاية لا في حيز العقيدة والاعتناع . وربما استشهدنا بها يوماً حين نقص خبراً أو نؤيد رأياً ولكننا لا نرجع إليها حين نرتبك في أدق أمورنا الخاصة . والأخلاق والفضائل عقائد تتكون في نفوسنا وتثبت فيها ففسير عليها في حياتنا من غير بحث ولا تفكير .

أما أن المسرح يستطيع إفساد الأخلاق ففيه من روسو إغراق كثير ، ولكنه يحتوي أيضاً جانباً من الحقيقة . وما علينا إلا أن نرى ما تتركه المزليات في النفوس والأذهان والحافظات من الأثر ثم نقرنه إلى ما يبقى بعد الروايات الجدية لنرى أن السخف والسخرية أقرب للتلصق بالنفوس ، خصوصاً نفوس هذه الأجيال المادية الإباحية ، كما أن ما يسعى وراءه المؤلفون التمثيليون من تحليل الأخلاق وعرضها للنقد العام والاستخفاف ببعض منها من شأنه أن يهدم بعض أركان الأخلاق المرتكزة على مجرد العقيدة من غير استناد إلى التعقل والبحث . ومن هذه الأخلاق الاعتقادية ما هو كبير الفائدة .

ولخطاب روسو هذا روعة تحجب إلى النفس قراءته وفيه أفكار وصور تجعله لذيذاً جذاباً . وهو أكثر سكينه ورزانه من الخطابين السابقين خطاب العلوم والفنون وخطاب عدم المساواة ، ويدل على أن روسو ساعة كتبه كان في أهدأ

وأهنا أيامه . وما لبث أن ظهر في عالم المطبوعات حتى تحافظته الأيدي وتعددت منه الطبعات .

وقد استثار هذا الخطاب حوالى أربعمائة رد عليه . على أن أهم الردود هما رد مارمونتل ورد دالمبير نفسه . ولم يمتنع فولتير أن يعاون مركزيز ( زيمان ) في الرد على روسو بعد ما اعتقد أن كلمة روسو موجهة إليه خاصة . فأما رد مارمونتل فسطحي ضعيف . وأما رد دالمبير فدقيق حشوه النكات البالغة والتقريع المر . وحسبنا منه هذه العبارة لئرى كم كاد فيه لروسو : قال : « إن الأكثرين من خطباء المسيحية يحكمون على ما لا يعرفون حينما يتكلمون عن الكوميديا . أما أنت فقد درست وحللت ووضعت بنفسك هذا السم القاتل الذى تسعى لزيادته اليوم عنا . ثم نراك تطعن على رواياتنا وقد ألقت فيها بله ما شاهدت منها . قد أعلم رأيك فى أن الملاحى لازمة فى مدينة بلغت من الفساد ما بلغت تلك المدينة التى أقمت فيها زمناً طويلاً . وإنما لأهلها الضالين للأهل ووطنك ألقت رواياتك . أى أنك ياسيدى قد عاملتنا معاملة تلك الحيوانات المريضة يقضى عليها قتلاً مخافة أن يمتد بها الألم . وقد كان لسواك أن يهتم بهذا الأمر ويوفر على حسن ذوقك مثل هذا الطعن بعد الذى كان بيننا لما ألقت من نجاح وإقبال أعلاك كشاعر وكموسيقى وجعل للتمثيل من الأنصار مبلغ ما صرفت عنه بلاغتك . لهذا فلن يضر الابتهاج بقراءتك الابتهاج بسماحك وستبقى طويلاً تعاني الألم أن ترى روايتك ( ملاك القرية ) تفسد كل ما استطاعت كتاباتك ضد المسرح أن تيجى به » .

وأما فولتير فقد رأى فى روسو العدو اللدود والعقبة الكؤود بعد نشر هذا الكتاب فجعل يطعن عليه بكل لسان ويرميه بكل مسبة ويفسد عليه كل سبيل ، ولا عجب فقد كان هم فولتير أن تمثل رواياته على مقربة من مقامه ( الدليس ) بخيف فإذا هذا الصائح ينفر عنه الناس ويخيفهم من أذى عمله ويقول لهم : « إياكم والروايات فهى مبعدة لكم عن الطبيعة مقربة إياكم من الفساد لأنها أبعد ما وصل الإنسان إليه فى التصنع والكذب والظهور بغير مظهره » . وأنا ننقل للقارئ هنا شيئاً من الخطابات المتفرقة التى أرسل بها فولتير لبعض أصدقائه بهذه المناسبة ليرى كم كان أبو السخرية مهتاجاً مضطرباً :

فقد كتب إلى دالمير : «أصحیح أن روسو كتب ضدك وجدد شحناء مقال جنيف ، (وهي الشحناء الدينية التي سبقت الإشارة إليها) بل لقد بلغني فضلاً عن هذا أن السخف بلغ منه حتى قام في وجه التمثيل . وإنه في هذا ليرتكب خطيئتين : فهو يطعن على فن عاجله ويكتب ضدك وقد أثقلته بالمدائح » :  
 وكتب بعد ذلك إلى ( تيريو ) : « أما عن جاك فإن جنيف كلها تهرع إلى التمثيل من كل صوب وحذب بالرغم مما كتبه هو ضده وكذلك أصبحت مدينة كلفن مدينة المسرات والتسامح » .

ثم كتب إلى دالمير : أتراك تجيب حقاً على هذا المجنون روسو . هذا اللقيط ابن كلب ديوجانوس . . ثم كتب إليه أيضاً : أتنازلت لترضى فتقارع هذا المجنون جان جاك بالحجة والدليل .

وفي هذا الحين نشر خطاب عن التفاؤل كان روسو قد بعث به إلى فولتير ولم يسمح له بنشره . فلما رآه منشوراً طار صوابه وكتب إلى فولتير يحاسبه على نشره ويعاتبه ويلومه . ثم ما أسرع ما انتقل من لهجة اللوم والعتاب إلى المصارحة بالعدوان قال : « إنني لا أحبك يا سيدي حيث أذيتني وأنا تلميذك والمعجب بك أذى بلغ مني . فقد أضعت جنيف حين أوتك وأبعدت عنى أهل وطني جزاء على ما قمت به من تحييدك والتصفيق لك بينهم . وأنت الذي تجعل مقامى في بلادى غير محتمل وأنت الذي ستجعلنى أموت في أرض غريبة محروماً من كل ما يتعزى به المائتون ، وملقى في الثرى من غير أى تشریف في حين أراك تلقى في بلادى كل أنواع التكریم والتشريف التي يطمع فيها إنسان . . بل . فأنا أكرهك وأنت الذي أردت ذلك . لكنى أكرهك كراهية رجل كان أجدر به أن يحبك لو أنك أردت محبته . ولم يبق في قلبي من العواطف التي كانت فيه لك إلا إعجاباً لا يستطيع أحد أن يمنع عن عبقرتك وإلا محبة مکتوباتك . وليس ذنبى أنى لا أستطيع أن أحترم إلا كفاءتك . ولكنى سأحترمها دائماً وأقدم ما يجب لها من الفرائض . وداعاً يا سيدي » .

وكان هذا الخطاب آخر العهد بين فولتير وروسو . فلم يرد عليه فولتير . ثم لم يفتأ بعد ذلك أن ينتقص من روسو كلما عرضت الفرصة بل كلما عرض اسمه . ولم يكتف بأن ينسب إليه الجنون والغرور والنقائص طراً بل ادعى عليه أنه انضم

إلى أخصامه في جنيف وأراد الإضرار به . قال أميل فاجيه : « وكل ما هناك في مكاتبات روسو أن روسو به غيرة من فولتير وأنه يعنى انحطاط الأخلاق في مسقط رأسه ويعتقد أن لفولتير يداً في المعاونة على هذا الانحطاط . أما ما سوى ذلك فمحض وهم من فولتير ، وهو المتظن في كل شيء تظنن روسو وإن يك على شكل آخر . وإن تبادل العداوة بين هذين المصابين بحمق معاداة الناس طراً أمر يستحق النظر . وسنجدهما متواجهين عما قريب » .

وفي هذه الأثناء ظل روسو محتفظاً بما كان قد اعتزمه من الابتعاد عن الكبراء والعظماء . أو بالأحرى لم تسمح فرصة جديدة تخضعه لهم . فقد كان زواره ( بمولوى ) جماعة من محبيه والمعجبين به من سواد الناس ومن ليس لهم دالة الشرف والثروة . ولهذا رأيناه أتم خطابه إلى دامبير في ثلاثة أسابيع واستمر في كتابة روايته هلويز الجديدة . وقد كان أشد الناس التصاقاً به شاب اسمه ( دلير ) من المولعين بالأدب وعلى شيء غير قليل من الغفلة بلغ به حتى اقتاد رفيقته وصاحبان لها إلى منزل روسو الذى انسل من الدار حينما علم بالأمر وتركها لهم . وقد أغضبه تصرف صديقه حتى ذكر له رفيقته بلفظ التحقير . وبعد تبادل الخطابات بينهما في هذا الباب تنوسيت المسألة ورجعا لما كان عليه من حسن العلاقة .

غير أن روسو لا يمكن أن يعيش طويلاً على هذه الطريقة . إنه رجل ولد صغيراً وطعن على الكبراء بنعمة استلقت الأنظار واستدعت الإعجاب فجعلته موضع عطف هؤلاء الكبراء أنفسهم بما ركب في النفس الإنسانية من التناقض ، وجعلته وهو الداعي إلى الحرية المحب للمساواة المنادى بالبساطة الطبيعية ينتقل من ظل كابر إلى ظل كابر آخر . لهذا فلم يظل به المقام في « مولوى » حتى تعرف بالمركيزة فردلن وبالبرنس دوكونتى وبالمرشال دلكمسيور وزوجته . ولم يمض بعد ذلك زمن طويل حتى انطوى تحت جناحهم وإن احتفظ بشيء من حريته التى كان قد فقدتها تماماً في كنف مدام دنبائى ومدام دودتو وأصحابها . وكذلك رجع العصفور إلى القفص من جديد .

## ٨

بقى جان جاك في منزله بمونلوي حراً من قيود الكبراء مكتفياً بصداقة رجال ونساء كانوا جميعاً يودونه ولا يطلبون منه أكثر من مجرد الصداقة . ولقد ذكر في اعترافاته أسماء الكثيرين منهم أمثال كونديه ومالتور والأب برتبييه وغيرهم . وكان كلما أوغل في وحدته وانقطاعه ازداد عقيدة أن أصدقاءه الأقدمين يعملون جميعاً يداً واحدة على الوقيعة به والقضاء على سمعته وشهرته . وكان أهم ما بلغه أنهم يتعون عليه انقطاعه عن باريس إلى الخلاء وعلاقته بمدام دودتو ورفضه مصاحبة مدام دبناي إلى جنيف وتركه الصومعة . فلما بلغته هذه المطاعن زادت انكماشاً بل جعلته يفكر في ترك التأليف والأدب ويتعد عن الناس إلى الأرياف فلا يعرف عنه أحد شيئاً . وزاده تمسكاً باعتقاده أن زاره سان لمبير في مسكنه الجديد وقص عليه أشياء عن مدام دودتو لم يفض روسو بها إلا لصديقه الحميم ديدرو. فلما استأذن كلام سان لمبير على سماعه أيقن أن ديدرو نفسه انقلب عليه وأنه أصبح ولا صديق له . فدرس في مقدمة كتابه إلى دالمبير عن المناظر كلمة استعارها من (الأكليزياستيك) أشار بها إلى انقطاع الصلة بينه وبين صديقه مقلداً في ذلك (موننتي) حين أعلن للملأ على أثر انقطاع الصداقة بينه وبين الأب تورنمين خبر هذه الحادثة قائلاً : ( لا تسمعوا لما يقوله الأب تورنمين عني ولا ما أقوله عنه فقد انبت جبل صداقتنا ) . لكن هذا التصرف الذي لاقى من الناس إعجاباً بموننتي انقلب على روسو وأعتبر مأخذاً جديداً عليه . فقد رد إليه سان لمبير هذا الكتاب حينما أهدها إياه وشفع رده بخطاب قدح به في تصرف روسو أشد القدح ، وبلغ من ذلك أن أعلنه بانقطاع كل صلة بينهما . وكذلك خيل لروسو أن لم يبق له حتى ولا من القدر نصير . وظل وكل عزائه عن هذه المصائب المتتابعة أنه لم يقصد بإنسان سوءاً وأن قلبه أطيب القلوب .

وإنه ليظن أن قد تم انقطاع أصدقائه الأقدمين طراً عنه إذ وصله خطاب من المسيو (دبناس) يشكر له فيه إهداءه كتابه عن المناظر ويعتذر بكثرة أشغائه

عن عدم ذهابه إليه وبدعوته لتناول العشاء معه عند مدام (دوين) حيث يكون سان لمبير وفرانكي ومام دودتو ويخبره أنهم جميعاً يريدون أن يكون روسو من جماعتهم . فقبل روسو الدعوة بعد تردد . ولما ذهب في الموعد المعين أحسن الحضور جميعاً استقباله فأصلح ذلك بعض الشيء من علاقته بسان لمبير ، وإن لم يعدها إلى سابق شأنها . وكذلك كان الأمر فيما يتعلق بمام دودتو ، كان من نتيجة ذلك أن أعاد إلى روسو سابق هدوئه .

وفي شتاء سنة ١٧٥٨ اتى من كتابة الهلويز وفكر في طبعها ونشرها وبعث بها إلى الناشر (رى) في أمستردام . ولقد كان تصحيح مثل هذا الكتاب وطبعه مما يكلفه كبير عناء لولا أنه عرف في ذلك الحين المسيو لا مونيون دى مالرب رئيس المكتبة الملوكية معرفة زادت توطداً مع الأيام وحببت كل واحد منهما إلى صاحبه وجعلت مالرب يستعين بمركزه لاستيراد (بروفات) الكتاب من أمستردام مع بريده هو من غير أجر ويرسلها لروسو كذلك ليعنى بتصحيحها وردها عن الطريق عينه مما وفر على روسو كثيراً قد كان يتقله لو أنه اضطر أن يدفع كل هذه النفقات من جيبه .

وفوق تفضله باستيراد (بروفات) الهلويز من أمستردام وردها إليها فقد أخذ المسيو مالرب على نفسه النظر في الرواية وإجراء التصحيحات اللازمة لإمكان طبعها ونشرها في فرنسا . ذلك أن حرية النشر لم تكن مبدأ مقررأ في ذلك العصر كما هي اليوم ، بل كان من الواجب عرض أى كتاب قبل طبعه حتى لا يصادر أو يلقى القبض على صاحبه . ولقد كان دالمبير نفسه هو الذى قام بالنظر في خطاب روسو عن المناظر ورأى أن لا مانع من طبعه . كذلك أخذ المسيو مالرب على عاتقه النظر في الهلويز لهذه الغاية . وقد فصل عنها بعضاً مما في النسخة الأصلية مما رأى أنه قد يمس إحساسات بعض أشخاص في البلاط وبالأخص مدام دى بمبادور .

وكان من أفضل مالرب على روسو فوق ماسبق أن عرض عليه عن طريق المسيو مارجنسى وظيفة التحرير في جريدة العلماء . وبعد تردد بين قبول ذلك المركز أو رفضه . فضل روسو الرفض ، قال : « لقد كنت أعلم أن امتيازى في الكتابة راجع إلى حرارة في النفس تمس ما أعالجه من الموضوعات ، وأنه حب

العظيم والحق والجميل هو الذى يحرك عبقرى . . لكنهم ظنوا أنى أستطيع الكتابة بالحرفة كما يكتب كل من سواى من الأدباء . والحق أنى ما كتبت إلا تحت دافع شهوة الكتابة والفكرة » .

وما زاد روسو تشبثاً بالرفض أنه كان قد اعتزم فى نفسه ترك الأدب والتأليف تقزراً من رجال الأدب ومن الكبراء وعجزاً عن السير على منوال هؤلاء فى نفقات كانوا يكلفونه إياها وهم يحسبون أنهم يسدون إليه النعمة ويتقدمون إليه باليد والجميل . وثبته فى عزمه ما أفاده من طبع خطاب المناظر وهلويز الجديدة التى لم تكن قد ظهرت بعد ، وما كان ينتظره من الكتب الأخرى ككتاب التربية وكالعقد الاجتماعى وكانا لما يقدما للطبع . لكن الأقدار قضت على روسو أن يعيش دائماً فى تناقض مع نفسه وفى نقض لإرادته . وإنه لعند عزمه هذا ورفضه مركز التحرير فى جريدة العلماء إذ عرضت فرصة رده عن عزمه وأنسته سابق تصميمه ألا يكون له بكابر أو شريف علاقة واستدرجته من جديد ليخضع لنير الكبراء والعظماء .

فقد كان فى مومرنسى قصر بديع بناه ( كروازا ) لأسرة مومرنسى ثم آل بعد ذلك إلى دوق لكسمبور أحد مارشالات فرنسا . وكان المارشال وزوجه يجيئان إلى هذا القصر مرتين فى كل عام فيمضيان فيه خمسة أسابيع أوستة . فلما جاءوا إلى مومرنسى بعد أن أقام روسو بها أرسلوا إليه رسولاً من عندهم يهديه تحييم ويدعوه لتناول العشاء بالقصر كلما طاب له ذلك . وكان مدام ذلكسمبور عثرت من روسو على ما كانت تطمع فيه كل سيدات ذلك العصر : أديب من الأدباء الظاهرين تحلى به دارها وتجعله زينة صالونها ويقوم عند الضرورة بخدمتها . لكن روسو وقد ذاق الأمرين من الاتصال بالكبراء اكتفى بشكر الرسول عن حسن عطف الدوق والدوقة عليه . وكان ذلك شأنه دائماً فى المرات التى تردد فيها الرسول . ثابتاً عند عزمه ألا يكون بينه وبين كابر تجارة بعد الذى رآه منهم . وإنه لكذلك فى بعض أيام ربيع سنة ١٧٥٩ إذ أقبل عليه دوق لكسمبور بنفسه ومعه بعض أصحاب له : « فلم يكن لى بعد ذلك من وسيلة للتخلص من رد زيارته والتقدم للسيدة زوجته بريق التحية مقابل ما أبلغنيه من تطفها إلا أن أكون غراً وقحاً . وكذلك بدأت تحت هذه الطوالع المنحوسة علاقات لم يكن فى مقدورى التخلص منها

برغم إحساس في نفسى كان يجعلنى أخشاها أشد خشية » .

وكان أشد ما يتخوفه روسو ما سمعه عن مدام دلكسمبور من خبث الطبع  
برغم ما كانت عليه في شبابها من جمال ورقة . وإنه ليعلم ذلك من زمن طويل  
مضى حيث كان قد رآها قبل هذه المرة بنحو اثنتى عشرة سنة حين كانت لا تزال  
تدعى دبوفليه باسم زوجها الأول . وقد وصفتها مدام دوفان يومئذ بقولها :

« إن دوقه بوفليه جميلة جداً لا تحتاج أن تجهر به . فخلقها ( وجهها )

كله الحياة والقوة ونظراتها تعبر عما يدور بدخيلة نفسها حتى ليسهل على قليل  
الملاحظة معرفة ما تفكر فيه من غير أن تقوله هي ، وحركاتها بديعة وطبيعية وتتفق  
مع كل ما تقول بحيث يصعب على سامعها أن يمنع نفسه فلا يتساق للتفكير  
والإحساس على مثالها ، ولها السلطان حيث تكون . وحيث تكون تحدث الأثر  
الذى تريد إحداثه ، وهي تنفق من فضائلها وأفضالها على طريقة الآلهة حيث  
تركنا نظن أنفسنا أحراراً أمامها في حين أنها تصرفنا كما تشاء ، ولها من قوة النفاذ  
إلى دخيلة النفس ما يجعلنا نضطرب أمامها ، ومن ثم كانت مدام دبوفليه مخوفة  
أكثر منها محبوبة . وهى تعلم ذلك ولا تسعى لتغيير رأى أعدائها فيها بالتودد  
أو بملاطفتهم بما يختلف مع شدة خلقها ، وإنما تعزى بحسن رأى أصدقائها فيها  
وبما توحى به إليهم من العواطف الطيبة . وهى ذكية الفؤاد سليمة الذوق وفيه  
لمهودها مخصصة لصديقاتها صريحة كتومة خدومة كريمة . ولو أنها كانت أقل  
بعد نظر أو أن الرجال كانوا أحسن نية لرأوا فيها منتهى الكمال . وقال ولبول عنها  
وكان ذلك أيام عرفها جان جاك :

« لقد كانت غاية في الجمال إباحية شريرة . واليوم ذهب جمالها وانفض  
من حولها عشاقها وصارت تحسب أن الشيطان يحوم بها ويقدم نحوها . لكن  
تضعضها هذا سكن من حدتها حتى صارت مُدّاقة بما لها من نافذ اللذهن وحسن  
الخلق » .

لكن خشية روسو إياها تطايرت كلها لأول ما قابلها . قال : « وما كدت  
أراها حتى خضعت لها أن وجدتها جذابة بديعة ذلك الإبداع الذى لا يعمل  
فيه الزمن ويعمل هو في قلبى . وكنت أنتظر أن أجد حديثها مملوءاً بالخواتم والمغامز  
فلم يك شيء من ذلك ، وكان حديثها أحسن مما توقعت كثيراً ، فهو ليس ممتازاً

بالتكات ولا بالمفاجآت بل ولا بالدقة وإنما هي رقة لذيدة تسر دائماً ولا تضر أبداً .

« أما تملقها فأبلغ من السحر ؛ لأنه أكثر بساطة حتى ليظن الإنسان أنها تقول كلماته من غير أن تفكر فيها ، وأن قلبها يفيض بهذه الكلمات لا لسبب إلا لشدة امتلائه بها . » وإنما بقي لديه من أثر هذه الخشية شيء بعثت به إلى نفسه دوقه مونترنسى زوج ابن دوقه لكسمبور التي لم تمتنع عن العبث به بعض الشيء مما أثار شكوكه المتحفزة دائماً أن تثور .

على أن هذه الشكوك ما لبثت أن زالت هي الأخرى بما أبداه له دوق لكسمبور من حسن العطف والعناية حتى لحسب روسو ذلك صداقة نزل معها الدوق عن كل اعتبارات الألقاب ليضع نفسه كمساو لصاحب خطاب المساواة . وأحس روسو لذلك بسعادة عظيمة ، وبلغ من عناية الدوق به أن دعته ليكون في الأكاديمية الفرنسية فتعلل بديانته البروتستانتية . فلما أظهرت له أن كل شيء ممكن إزالته بفضل الدوق وصداقته للملك أصر على الرفض قائلاً إن الأكاديميات التي ترفض أن يكون من بين أعضائها أفاضل أمثال تريسان وملك بولونيا ليس من كبير الشرف الانتساب إليها .

ولما زار الدوق منزله أول مرة وجده مهتماً غير صالح حتى اضطر روسو يومئذ أن يجلسه هو وحاشيته في البرج الذي يشتغل فيه معرضين لقارس البرد ولا فح الزمهرير . فلما عاد وحادث الدوق واتصل ما بينهم وبين روسو عرضاً عليه أن يقوما بإصلاح بيته وأن يقيم هو في أثناء ذلك في القصر عندهم ، وله الخيار ما بين غرف القصر نفسه أو الإقامة في القصر الصغير . وهو بناء منعزل قائم وسط حديقة القصر المتسعة البديعة ينتشر فوق مرتفعاتها ومنخفضاتها وبين بطونها وهادها أنواع الزهر والشجر وبرك الماء ويتوج أرفع بقاعها بناء القصر الفخم . أما القصر الصغير فقائم بين أشجار البرتقال من ناحية وبرك الماء من ناحية أخرى فوق عمد عديدة نظمت بحيث يتخللها الهواء ويذهب عنها الرطوبة . فإذا أنت نظرت إلى هذا البناء من الجهة المقابلة للماء خيل لك أنه جزيرة مسحورة أشبه الأشياء بالجزيرة الجميلة ( Isola Bella ) في البحيرة الكبرى من البحيرات الإيطالية . في هذا السكن البديع كتب روسو قسماً غير قليل من كتاباته وبالأخص

من كتاب التربية . ولقد كان لهذه المناظر البالغة أقصى حدود الجمال أثر عظيم على ما كتب . وليت شعري هل ينكر كاتب ما للوسط الطبيعي الذى يحيط به من الأثر العظيم عليه .

وحتى لا يقص من أطراف سعادته بما قد تحدثه كلماته المضطربة غالباً من سوء الأثر فى نفس مدام دلكسمبور لجأ إلى وسيلة زادت عندها مقاماً وزادتها به تعلقاً . فقد جعل يقرأ لها رواية الهلويز وكانت يومئذ لا تزال تحت الطبع . ولم يحتج روسو لأكثر من ذلك حتى بلغ إعجاب مدام دلكسمبور به أقصى الحدود وحتى أصبح عندها الكلكل فى الكلكل : « فكانت لا تتكلم إلا عنى ولا تشتغل إلا بى وتدللى النهار كله بأحلى الألفاظ وتقبلنى كل يوم عشر مرات ، وجعلت مكانى على المائدة إلى جانبها ولم تسمح لسواى حتى من الكبراء بالجلوس فيه بل كانت تخبرهم أنه لى وتجلسهم فى غيره » . وكذلك أحاطت السعادة والسكينة بروسو وجعل ينهل منها ما استطاع . يقضى معظم نهاره فى القراءة لدوقة لكسمبور وفى صحبة الدوق فى رياضيات وسط الحداثق البديعة التى كانت تحيط بالقصر . ويقضى بعض الأوقات أحياناً مع تريز وينقطع أخرى لكتاباته وتصوراته . ولما انتهى من قراءة ( الهلويز ) طلبت مدام دلكسمبور إليه أن ينقل لها نسخة من خط يده أسوة بمدام ( دودتو ) وعرضت عليه أجراً مثلها . فكتب إليها يشكرها وردت عليه مقتبسة العبارة الآتية من كتابه : « أنت وإن كنت لاشك من خير الزبائن إلا أنى أجد بعض الغضاضة فى اقتضاء النقد منك بل أرى واجباً أن أدفع مقابل ما أتاله من السرور بالكتابة إليك » ثم أضافت : « ولا أزيد أنا على ما تقوله شيئاً وإنى ليؤلمنى ألا تخبرنى بشيء عن أمر صحتك ولاشئ يهمنى أكثر منها فإنى أحبك من كل قلبى إلخ » . ومع خلو هذا الخطاب من كل مغمز فلقد قضى الوقت الطويل يفكر فيما تريده باقتباس عبارته . بل إنه ليذكر فى اعترافاته أنه وقد كتبها بعد عشر سنين من هذه الحادثة لم يزل عاجزاً عن فهم ما أرادته مراسلته . وأدى به الاضطراب لغير سبب إلى أن كتب إليها كلمة تكاد تكون جارحة العبارة يلومها فيها كأن شيئاً فرط منها . واكتفت هى بأن تعتذر فى خطاب لها - على الماشى - من غير تعليق على الحادثة بأكثر من إظهار عواطفها الطيبة بالنسبة له وعظيم حنوها عليه .

والظاهر أن روسو كان شديد التخوف من هذه الصلة الجديدة بالكبراء بعد ما لقي في صلاتهم الماضية من متاعب وآلام فكان يحتاج لكل حركة يشعر ولو من بعيد بأن فيها شيئاً من الرجوع إلى الرق القديم . وهذا واضح في تصرفه في الرد على خطاب الدوقة إليه وواضح أيضاً في مسألة بسيطة أقام الدنيا وأقعدها من أجلها . ذلك أن مدام دلكسمبور أهدت بعض الهدايا للمدمازل لفاسير ( تريز ) حتى لا تخل بعهدتها مع روسو ألا تكون بينهما هدايا . فكتب روسو إليها ما يأتي « كلا ياسيدتي الدوقة . أنت لا تهديني شيئاً وإنما تهدين تابعتي . يا للحيلة . أيليق ذلك بك أم أنت تحقريني إلى حد تلجئين معه إلى مثل هذه الوسيلة ؟ إنك والحق يقال ياسيدتي إنما تقصدين إلى تذكيري من أنا . ولقد كدت أنسى كل شيء إلا واجبي وكاد قلبي وقد زعمني مساويا لكم أن يجترئ على الارتفاع إلى مرتبة صداقتكم ، لكنك تأبين على سوى الاعتراف بأفضالك ومن الواجب السعي لإطاعة أمرك . هنالك ردت عليه مدام دلكسمبور بما يأتي : « أفيمكن ألا تكون ظالماً إلا بالنسبة إلى . ألسنت أنت الذي سمحت لي أن أعطى للمدمازيل لفاسير ثوباً منقوشاً على شريطة أن يكون قبيحاً . ولم يك إلا ما أمرت به ثم أراك ياسيدتي تؤنبن وتبعث إلى بخطاب في غاية القسوة وتهددني أنك لا تحبني بعد . ولو أتى ناقشتك وعتبت عليك لقلت كل ما يدور بخاطري ، ولكنني أفضل أن أنسى خطابك » .

وهذا الإحساس عنده بضعة مركزه لم يكن يفارقه . وقد كتب إلى دوق لكسمبور عدة خطابات كلها الخضوع والاستسلام والحنة لالشيء إلا لأن الدوق لم يكن يظهر له بعظمه العظمة ويجعله يشعر بذلك الفرق الذي كان يهوله ويرعبه . ومما جاء في بعض هذه الخطابات ما يأتي : « إن أفضالك أوقعتني في حيرة زادتنى رغبة في ألا تقع هذه الأفضال منك على غير أهل . إنني أفهم كيف يرفض الإنسان مترفعاً ما يتقدم به من لا يحترمهم هو من الكبراء . ولكن كيف لي يا سيدتي أن أكون كذلك معك أنت الذي حل من قلبي مكانة الشرف ، وأنت الذي كنت أبحث عنك لأكون معك لو أنت كنت مساوي ونظيري . اللهم إلا أن أنسى نفسي وأنكرها . إن ما رغبت عنه دائماً من العيش إلا مع الأصدقاء جعل لي لغة واحدة وطبعة واحدة لغة الصداقة ولهجة التبسط ، ولست أجهل ما يقضى

به ما بين حالى ومركزك من تحوير هذه اللغة ، وإن احترامى لشخصك لا يعينى مما يجب من ذلك لمركزك إلخ إلخ . وأيضاً : « نعم ياسيدى الدوق . أنت لا يدور بخاطرك مبلغ ما يجد الإنسان من اللذة أن يرى أن عدم المساواة قد تتفق مع الصداقة وأن الإنسان قد يكون له صديق أكبر منه »

وكان لروسو صديق أو بالأحرى معجب من مواطنيه يدعى كوانديه عرفه بمولوى وجعل يتردد عليه ثم اتخذ اسمه وسيلة يتقدم بها فى كل المصالونات التى يغشاها روسو . فلما كان هذا الأخير يكتب نسخة ( الهلويز ) لمدام دلكسمبور تقدم كوانديه بعمل النقوش اللازمة فيها . وفيما كانوا يوماً فى القصر يطلع كوانديه الدوق على هذه النقوش وحين موعده انصراف كوانديه قال الدوق : ( لنذهب راجلين ننتزه على طريق سان دنيس ونصحب المسيو كوانديه ) قال روسو : « أما أنا فقد تأثر قلبى لهذه العبارة حتى لم أستطع دون تقبيل مواطنى قدم هذا السيد الطيب القلب » .

هذا هو الإحساس الدخيل الذى يخلج فى صدر كاتب خطاب عدم المساواة . ولعل شديد ما كان يعانیه من آلام هذا الموقف ، الذى يشعر به كل مفكر تجاه أرباب الألقاب والثروة شعوراً مختلف درجاته وقوته ، هو الذى أثار نفسه وهاج عواطفه ودفعه ليكتب بقلم من نار هذا الخطاب المملوء قوة وحماسة .

ولكن هذه الثورة تهز قلب صاحبها وترعرش قلمه ما دام مطلق عنان الفكر الإحساس فى وحدته وفى أثناء كتابته . فإذا هو خرج للناس وجلس إليهم حكمه الوسط بقوانينه القاسية وقواعده الثابتة فراجعه ضعف الخضوع لحكمه والانحناء لما يعلى به من وجوب الزلنى للبعض ومصافحة الآخرين . لكن روسو كان أكثر المفكرين ثورة بسبب جنونه الخاص الذى كان يدفعه للاعتقاد بأن كل الناس يحسدونه ويغمطونه حقه ، ويجعله شاعراً لذلك أنه فى حرب دائمة معهم جميعاً . وهذا الشعور هو الذى كان يظهر كمين ثورته حتى حين يجب إخفاؤها ، وهو الذى دفعه لتحرير خطابات له لدوق لكسمبور وردوده على الدوقة . ولولاه لاستطاع أن يعيش مع العظماء وبعيداً عنهم فى وقت معا وأن يستفيد من عبقرية احترامهم إياه احتراماً يجعله مطمئن النفس غير مهتم بحركاتهم هذا الاهتمام الأحمق .

وهذا فولتير ، وبه بعض ما بروسو من الحق ، كان يعيش بين الأمراء والسادة عيش واحد منهم وله عليهم جميعا الدالة حتى لكانوا هم الذين يتزلفون إليه . والحق إنا نرى في نفس الأكثرين من الكتاب والمفكرين ضعفاً لا نشاهده عند رجال العمل . وكان ما يبعث به التفكير من إضعاف الإرادة يستتبع إضعاف الذاتية فيضطرون لستر ضعفهم بأنفة مصطنعة وغرور مخلوق من عاطفتين متناقضتين : الاستسلام والثورة ؛ استسلام للبيئة وثورة داخلية ضد البيئة . لهذا ترى الكاتب لا يفتأ يعذب نفسه بالأمانى والأوهام . وتراه بينما هو في قصر من آماله يكيف العالم كما يشاء خياله ويرتب المستقبل على حسب منطقته ويبنى ويهدم ويخلق ويعدم إذا هو لذعته لاذعة من لواذع الحياة مما قد لا يتأثر له إنسان سواه فاهتاج واضطرب وتهدمت الصروح التي بنى ولعن الإنسانية وصمم على العزلة وعلى ترك الناس وقد يندفع للتفكير في الانتحار . . . ويمر هذا العاصف ثم تراجع أحلامه ويراجعه وهم تشييد المستقبل أو التحكم في الحاضر أو نحو ذلك من أوهام رجال القلم . وهكذا تنقضى حياته بين الوهم والحلم والخضوع والعزة حتى يدخل طى الماضي وينطوي ما كتب ليبقى مطوياً أبداً الدهر أو لينشره مستقبل قريب أو بعيد فيحكم العالم ويحقق أحلام صاحبه وقد صار صاحبه تراباً .

ذلك كان شأن روسو . رفعته عبقريته إلى مراق العظمة وأمسك به مولده وقعدت به ثروته بين الأصاغر والضعفين . والعبقرية تحيط بالماضي والحاضر وتمتد إلى خفايا المستقبل فلا ينسى الشخص ما كان ولا من هو إلى جانب غيره ، بل هو أميل إلى الانتقاص من نفسه لأنه أكثر شعوراً بتفاهة الحياة وضعف الإنسان . ولو أن نبوغ روسو كان من نوع النبوغ العملي الذي يسير بصاحبه في طريق تكوين الثروة وتقوية المركز المادى إذن لرأيت بدل هذا الخجول الكثير التفكير في نفسه وغيره وقحاً من أولئك المتبجحين بالمال البالغين في تبجحهم حد السماجة المعتبرين هذه السماجة من بعض مستلزمات حياتهم لحفظ ما يسمونه مركزهم . وإني لعمر الحق لم أر في حياتي منظراً تنقزز منه النفس وتشمثر الحواس أكثر من منظر أولئك الذين يصلون للثروة فيتبجحون . يكلمك الواحد منهم وهو يحسب أنك بعد هنية مستجديه وأنت سيده نفساً ، وأبعد الناس عن الحاجة إليه . ويبدى رأيه في الشيء وهو يظن أن ما عنده من مال أفاده علماً فإذا هو لم

يزده إلا جهلا وغباوة . ويقدر أن الوجود وما فيه مقصور على المادة المحسوسة المحيطة به والتي يتوهم أنه يستطيع حكمها فيحسب نفسه ملكاً قديراً بل إليها ذا بطش وسلطان . أما النبوغ العقلي فينشر أمام ذهن صاحبه العوالم كلها بما فيها من محسوسات ومعنويات ويدعوه للنظر فيها جميعاً وتعرف قوانينها وللحكم على مقتضاها فتراه يعرف مبلغ حقارة الفرد وصغره في الكون الهائل العظيم ، كما تراه يندهش أمام تبجح أولئك الماديين المحدودى العقول . لكن اندهاشه هذا لا يمنعه من احتقارهم لضيق أفهامهم وإن حكمت عليه ضرورات الحياة في أحيان كثيرة بمعاشرتهم والعيش معهم .

ولم يقصر روسو علاقته الجديدة على المارشال والدوقة ذلكسمبور بل اتصل بجميع أصحابهم وأصدقائهم من الكبراء . وكان يشعر لهذه الصلة بشيء من السرور الداخلى الذى كان منبته الوضيع يكبرها في عينه . وهذه العبارة من اعترافاته تدلك على مبلغ تجلى هذا الشعور عنده . قال : « وكنت أستقبل في هذه الشرفة مسيو ومدام ذلكسمبور ودوق فليرى والبرنس دتنجرى ومركيزا ومنتير ودوقة مومرنسى ودوقة بوفليه والكونتيس دفالنتوا والكونتس دبوفليه وأشخاصاً غيرهم من أهل هذا المقام ، وقد كانوا لا يابون أن يحجوا عن طريق مرتفع متعب من القصر إلى مونلوى » . وكان لا يفتأ يملق دوق لكسمبور لعلمه أن الفضل في نواله هذا الشرف العظيم راجع إليه . وهذه بعض عباراته إليه : « لقد كنت يا سيدى المارشال أكره الكبراء قبل معرفتى لك . وإنى لأشد كراهية لهم من يوم علمتنى كم هو سهل عليهم أن يجعلوا أنفسهم موضع كل محبة وتجلة » .

في ذلك الوقت الذى أترع فيه بأنواع الهناء عرف مدام دفردان . وعلى الرغم من أنه كان في ظروف لا تسمح له بالتعلق بها ، فإنها اتصلت به أشد الاتصال مغضية عن خطاباته القاسية التى كان يرسل بها إليها . على أن علاقتهما لم تزد على حد المعرفة في ذلك الحين ، ولذلك تركها للكلام عنها في الوقت الذى تركت فيه غير قليل من الأثر في نفس روسو .

ولما تم إصلاح بيته بمونلوى عاد إليه مع الاحتفاظ بالغرف التى كان يقطنها في القصر الصغير . وجعل يتردد على هذه الغرف منفرداً أحياناً ، ومع تريبز أخرى يتناولان فيها لقمة العصر ؛ فإذا قابل مدام ذلكسمبور قضى معظم وقته في إتمام

قراءة الهلويز وهي به معجبة وبروايته مجنونة . فلما أتمها خشي أن يقع في أغلاله وقلة ذوقه في الكلام فبدأ قراءة كتابه عن التربية - أميل - ومع أن الدوقة لم تظهر سامة لسامعه فإنها لم تظهر من السرور به ما كانت تظهر لدى سماع الرواية . وذلك أمر طبيعي عند معظم الناس وبالأخص عند السيدات . فإن سماع خطابات الحب المتبادل وتوقع حوادثه أكثر تشويقاً من سماع الكلام الجدى في مسألة هامة كالترية . مع ذلك فقد أخذ روسو على الدوقة عدم إعجابها وظن أنها بدأت تمل صحبته وكتب إليها بعد سفرها بعض خطابات مملوءة بالعتاب المر .

على أن الدوقة لم تتغير على روسو حينئذ ولا تغيرت عليه بعده وإنما هو تجسم الخيال وفعل مرضه النفسى ، هو الذى أدخل هذا الزعم إلى وهمه . بل لقد دفعها اهتمامها بروسو أن رأت أن من الخطأ طبع كتاب التربية في هولاندا دون أن يطبع في الوقت عينه في فرنسا . وكان هو على غير هذا رأى لأن بعض المبادئ التى قررها في « الأميل » وبالأخص مبدأه عن حرية العقيدة والديانة الطبيعية - مما سنتكلم عنه عند الكلام على كتاب التربية - قد تصادم رأى السائد المقرر لدى الحكومة في ذلك الحين . ولما لم تكن حرية إبداء رأى معترفاً بها يومئذ فقد كان من المحتمل أن يقبض على طابع الكتاب وعلى روسو نفسه . لكن هذه المخاوف التى حققها للمستقبل لم ترد الدوقة عن رأيها الذى أبدى فيه المسيو مالرب . والمسيو مالرب كما يعلم القارئ عالم مسموع الكلمة . فلم يكن من روسو إلا أن أذعن لرأيها وسلمهما نسخة الكتاب الخطية يتصرفان في طبعها كما يشاءان .

ولا يعجب القارئ من مخاوف روسو في هذا الباب . فقد كان كل كاتب معرضاً للنقى وللاعتقال في الباستيل إذا نشر أى عبارة يشتم منها التعرض لمبدأ ثابت أو الطعن على شخص ذى مركز في الحكومة أو على رجل أو امرأة من ذوى السلطة في البلاط .

ولا أقرب من مثل يضربه روسو نفسه ، فقد طعن القسيس مورليه على مدام دوبك في رواية نشرها فلم يكن بأسرع من أن اعتقل في الباستيل وأحوج الأمر لخروجه منه توسط ديدرو لدى روسو وروسو لدى مدام ذلكسمبور ورجاؤها هى الوزير سان فلورنتان وتوسط هذا الأخير لدى زملائه ومن بيدهم أزمة الحكومة من الرجال والسيدات . وكان هذا العصر كان في حالة حرب مستمرة كالتى

أثقلت عاتق العالم من سنة ١٩١٤ ومنعت على كل مفكر حرية الفكر وعلى كل كاتب حرية الرأي والقول .

وفيها هم جميعاً في اهتمامهم بترتيب طبع كتاب التربية ظهرت رواية الهلويز في أواخر سنة ١٧٦٠ وأوائل سنة ١٧٦١ والناس جميعاً أشد ما يكونون تشوقاً لها لما نشرته عنها مدام دلكسمبور في البلاط ومامام دودنو في باريس . وما لبثت أن ظهرت حتى تناولتها الأيدي وأعجب بها الناس أيما إعجاب وصادفت أعظم النجاح . لكن بعض حساد روسو لم يمتنعوا عن الطعن عليها . وحرص فولتير المركزى دى زيمين أحد المحيطين به فكتب أربعة خطابات ضدها . ولكن نجاحها كان حاسماً وتاماً بحيث سخر الناس من هذه الخطابات ومن غيرها ولم يعيروها التفاتاً . وفى هذا الوقت أيضاً ظهرت رسالة من قلم روسو بعنوان ( السلام الدائم ) رد عليها فولتير : دأ يعتبره روسو سخيفاً مضحكاً .

يقول روسو إنه فى هذا الظرف الذى علا فيه نجمه وضحك له فيه طالع السعد بدأت مدام دلكسمبور تملمه وتقصيه ، ويعزو ذلك إلى تقرب بعض معارفه منها ونواظم الزلقى لديها وانتقاصهم منه عندها . على أن مراسلات الدوقة ندلنا قاطع الدلالة على أنها كانت له كما كانت من قبل تعمل لرضاه وتسكن برقيق قوفاً غضبه وتظفر فى مصالحه بقدر ما تستطيع . أما المظاهر التى يشكو منها روسو كعدم الاحتفاء به كسابق عاداتها وعدم الاهتمام بأن يكون دائماً إلى جانبها على المائدة والاتجاه لغيره من الزوار فلم يكن إلا أثراً طبيعياً من آثار طول العشرة ونتيجة للأغلاط التى كان روسو لا ينفك يقع فيها الوقت بعد الوقت تجاه الدوقة . صحيح أن كثيراً من هذه الأغلاط بل كلها كانت غير مقصودة من جانب روسو بل لقد كان يرمى فى بعضها لإرضائها فينقلب الأمر عليه . ولكن ما عرفه القارئ من صفات الدوقة وأخلاقها يجعله يرى أنها كانت تود فى عظمتها لو تصلح هذا الأخرق ولو بإظهار شئ من الجفاء له .

ومن بين الأغلاط التى ارتكبها روسو غلطة مضحكة . ذلك أنه كان له كلب اسمه ( دوق ) . فلما نزل بين أظهر اللكسمبور رأى من اللياقة أن يغير اسم الكلب فيجعله ( ترك ) . وفيها هم على المائدة يوماً سأله أحد الحاضرين على سبيل السخرية عن سبب تغييره لاسم كلبه فكان جوابه : حتى لا يكون له مثل لقب

المارشال . وكان في تفسيره هذا أكثر خرقاً مما لو ترك للكلب اسمه الأول من غير تغيير .

ولما جسم الوهم لروسو أن الدوقة بدأت تتغير عليه فكر في تركها وترك مولوى والانقطاع عن الأدب والاتزواء في الأرياف . لكن ماليته كانت مضغضة في ذلك الحين ولا تسمح له بمثل هذه الحركة . ولم يكن قد أفاد شيئاً بعد من كتابه الأميل . فأرسل بكتابه ( العقد الاجتماعي ) إلى الناشر ( رى ) في أمستردام وقبض في مقابلته ثلاثة آلاف فرنك . وقام الناشر المذكور بطبع الكتاب بسرعة حتى ظهر قبل أن يظهر كتاب التربية سواء في فرنسا أو في هولاندا بشهرين . ثم ظهر كتاب التربية أخيراً وكان ظهوره بدء المصائب التي انتزعت روسو من طمأنينته وأرسلته يجوب الأقطار والممالك بقية عمره وعجلت سير مرضه حتى أوقفته على حافة الجنون إن لم تكن دفعت به إلى دركاته .

ظهر كتاب التربية فلم يقابله الناس بالضجة التي قابلوا بها الملويز بل قابله بشيء من التخوف والمهابة . وإن روسو لينتظر الأثر الذي سيحدثه كتابه ويسأل معارفه وأصدقائه عن رأيهم ورأى الناس فيه إذ بدأ يصل إلى سمعه أن في نية الحكومة مصادرتة والقبض على مؤلفه . فلم يأبه للخبر بادئ الأمر وصار يضحك من كل من ينقله إليه ، وكان أشد ما يكون استغراباً حين قال له صديق من أصدقائه إنه قرأ الكتاب وأعجب به ولكنه يرجوه ألا ينقل ذلك عنه . وما زال في سكينته مضمثناً لما رأى عليه مدام دلكسبور من الطمأنينة حتى إذا كان في بعض الليالي إذ أهبل عليه ( لاروش ) من قبل المارشال وأخبره أنه تقرر القبض عليه في صباح الغد وأن لا وسيلة إلا الحرب . فذهب من فوره وقابل الدوقة التي كانت تنتظره في سريرها . وبينما يتحدثان أقبلت عليهما مدام دبوفيه قادمة من باريس . فجعلوا يفكرون في الطريق الذي يختارونه . والحقيقة أن القبض على روسو لم يكن بالشئ الخطير لذاته . ولكن علاقة دوقة لكسمبور والمسيو مالرب بطبع الكتاب وإمكان ذكر اسمهما على لسان روسو في أثناء التحقيق وما قد يتركه ذلك من الأثر السيئ ضدتهما في البلاط وعند الملك ، وما قد تهبجه الحادثة من الرأي العام كل ذلك هو الذي جعلهم جميعاً يجتمعون على فكرة ترك روسو لفرنسا . وقد ظهر هو في هذه الفرصة مثال الإقدام والتضحية فلم يتردد في قبول الرأي الذي عرضوه عليه .

ودارت المناقشة حول المكان الذى يرتحل إليه . ورفض البقاء مختبئاً إلى أن يمر من الوقت ما يكتفى للتفكير كما رفض اللجوء إلى إنجلترا وانتهى به العزم على الذهاب إلى سويسرا . وفى تلك الساعة العصية قام الدوق والدوقة ومدام دبوليه وأصحابه فى القصر بوداعه . ثم جاءت تريزلفاسير ورجته أن تكون معه فأفهمها أن ذلك لا ينفعه ولا ينفعها ولم يفض لها بالمكان الذى اعتزم الارتحال إليه . وظل إلى ما بعد الظهر يرتب كتبه وأوراقه ثم ذهب فى صحبة الدوق إلى العربة التى كانت فى انتظاره لتقله إلى حيث يشاء .

ولقد كان أصدقاؤه وأعداؤه جميعاً يودون أن يخرج من المملكة من غير أن يقبض عليه حتى لا يقيم ذلك على الحكومة قيامة العالم . ولا أدل على ذلك من أن برلمان باريس أصدر قرار القبض عليه فى يوم ٩ يونية سنة ١٧٦٢ وقرر أن يكون القبض فى الساعة السابعة من صباح اليوم التالى . وقد رأينا روسو يقضى فى التوديع وفى ترتيب أوراقه إلى ما بعد ظهر ذلك اليوم ثم لم يحضر أحد . فلما ركب عربته وسار التى ولا يزال على مقربة من القصر بالمحضرين المكلفين بالقبض عليه ، فلما رآوه ابتسموا ولم يبقوا وساروا فى طريقهم ومر بعد ذلك فى شوارع باريس ورآه الناس طراً وسلم عليه معارفه ومع ذلك لم يتعرض له أحد . فلما خرج من فرنسا نزل فى ايفردن من أعمال مقاطعة برن بسويسرا عند صديقه المسيو روجن برغم تصميمه الأول الذى كان يريد معه الذهاب إلى مسقط رأسه جنيف . وإنه فى هذه الفرصة لنعما فعل . فقد أصدرت حكومة جنيف قراراً كالذى أصدرته حكومة باريس بتاريخ ١٨ يونية سنة ١٧٦٢ . وقد صادره أيضاً السوربون وضمن عليه رئيس كهنة باريس ، وطعنه قرار من البابا . وقضى عليه أمر صادر من حكومة هولاندا . على أنه لم يهتم فى ذلك كله إلا بمطاعن رئيس كهنة باريس وبقرار حكومة جنيف . فرد على الأول بخطابه إلى كريستوف ديمون وعلى الثانى بخطابات الجبل الخالدة .

ويحسب كثير من أصدقاء روسو أن يد فولتير كانت ذات أثر فى قرار حكومة جنيف . لكن المسيو فاجيه لا يعتقد صحة هذه الرواية بسبب تصرف فولتير فى هذا الظرف حيث دعا روسو للإقامة معه فى الدليس . صحيح أن روسو رفض لأنه يعلم أن فولتير ليس رجل ثقة يصح أن يعتمد عليه إنسان .

ولكن الحقيقة أن فولتير كان يريد بحماية روسو قطع لسانه والاستعلاء عليه فجاء رفض روسو جواباً قاطعاً طريق ما أراد فولتير من عمله .

فلما كتب روسو خطابات الجبل عرض فيها بفولتير فنشبت بذلك بينهما عداوة لم تهدأ ثائرتها فيما بعد يوماً من الأيام . بل ظللا يتبادلان الردود حتى آخر حياتهما الكتابية .

على أن هذا الفصل ليس موضع التفصيل في ذلك . وسنذكر في هذا الكتاب ما نريد ذكره منه بعد شرح نظريات كتاب التربية حتى يكون القارئ على بينة مما يذكر أمامه ، ولكننا نريد أن نختم هذا الفصل بالكلام في مسألتين . الأولى قرار برلمان باريس بالقبض على روسو والسبب الذي نبى عليه . والثانية علاقة روسو بمدام دلكسمبور ببقية حياته .

يعلم القارئ أن مما يمتاز به القرن الثامن عشر عن القرن الذي قبله نزعته إلى النقد الديني وإلى الإلحاد . وأن طائفة كثيرة العدد على رأسها فولتير كانت تتعرض للعقائد بأكثر مما تعرض لها به روسو وتتهم عليها وعلى رجال الدين أشد التهم . مع ذلك فلم يتعرض لهذه الجماعة أحد ولم يصدر ضد واحد منهم قرار كالذي صدر ضد روسو . فما هي الحكمة في ذلك وما هو السبب ؟

السبب الذي ذكره البرلمان في قراره هو أن روسو نشر أفكاراً تخالف العقيدة المحترمة في المملكة ووضع اسمه على الكتاب الذي نشر تلك الأفكار فيه . ولو أنه لم يضع اسمه لما تعرض له أحد ولما مس بسوء . بل لقد كان في وسعه إذا تدخل رجال القانون مع ذلك في الأمر أن ينكر الكتاب وكان ذلك في عرف أهل العصر كافياً لعدم مؤاخذته . وهذا ما كان يفعله فولتير . تصدر كتبه من غير أن يكون عليها اسمه ولا يأتي أن ينكرها إذا هو سئل عنها مهما علم الناس طراً أنه كاتبها ومهما افتخر بذلك في مجالسه الخاصة وفي كل مجلس لا يكون للقانون فيه مباشرة سلطان . فمصارحة روسو بأن الأفكار أفكاره واحتماله تبعها وذكره اسمه كمؤلف الكتاب من جهة وما يجب على الحكومة من المحافظة على العقائد السائدة من أن يمسه أحد أو أن يعرض لها إنسان من الجهة الأخرى ؛ ذلك هو ما دعا البرلمان لإصدار قراره . وقد رأينا أن الناس جميعاً وأعضاء البرلمان من بينهم كانوا يودون لو لم ينفذ القرار وأنهم جميعاً سرّوا بقرار روسو لأن القبض عليه كان

من شأنه أن يهيج بعض الخواطر ويضطر بعض الأشخاص لرفض ذلك النفاق الدائم الذى كانوا فيه بين إرضاء ضمائرهم وإرضاء الحكومة .

وبعد أن أقام روسو زمناً عند المسيو روجن في أيفردن قررت حكومة مقاطعة برن إخراجه من أرضها برغم معارضة عميد أيفردن ورغبته في حمايته . وهذا القرار وقرار حكومة جنيف وقرار السوربون وباقي القرارات لم تكن لتصدر لو أن روسو فضل بدل الفرار محافظة على سمعة مدام دلكسمبور والمسيو مالرب أن يعارض في الأمر لأن أيدى قوية كانت ستدخل يومئذ لمعونه فلا يبقى في الباستيل إلا أسبوعاً أو أسبوعين ثم يخرج خروج الظافر ليقم من بعد ذلك في عاصمة فرنسا ملكاً على رأس الكتاب والأدباء .

ولكن هكذا شاءت الأقدار وحكمت على روسو أن يحتفظ بمصلحة أصدقائه وحماته أكثر من عنايته بمصلحته الذاتية فتهازل عليه لذلك من كل جانب أنواع السخط ويقوم في وجهه رجال الحكومات والكتاب يصوبون إليه أمر سهام اللوم والتقريع ويقضون عليه أن يقضى بقية حياته هائماً على وجهه لا يعرف لنفسه قراراً .

فلما ترك أيفردن إلى موتيه ترافير على مقربة من نيوشاتل تجددت المكاتبة بينه وبين مدام دلكسمبور التى احتفظت له بالجميل طول حياتها . لكن روسو بدأ يشك في ولائها هى الأخرى حتى كتب إليها فى سنة ١٨٦٤ بمناسبة وفاة الدوق زوجها خطاب تعزية يقول فيه : « عبثاً أحارب نفسى لأمنع عنك مضايقة تغيث بائس . فقد بلغنى الألم الذى يحز فى قلبى جداً لا يعرف معه تحفظاً أو سترأ . وما كنت لأكتب إليك يا سيدتى الدوقة لو أنى عرفت شخصاً أعز منك عند الصديق الكريم الذى فقدته . ولكن من لى بإنسان أبسط إليه ألمى لذلك المصاب غير من يحس به أكثر من كل من سواه . ثم كيف يستطيع أولئك الذين أحبهم هو أن يبقوا منقسمين متباعدين . وهلا يجدر بقلوبنا أن تجتمع لتبكيه . فإذا لم يبق لى من مقام فى قلبك فليكن لديك بعض الاهتمام بما أقاسى من المصائب لأنه كان يهتم لها . . على أنى إنما أغر نفسى بما أقول . فلقد كان ترك الاهتمام بى ونسيتى كما نسيتى . فأى ذنب جنيت إلا أنى أحبيتكما حباً جمّاً فأعددت لنفسى بذلك أنواع الأسف . لقد تمتعت أنت بأرق محبته حتى آخر لحظة من حياته .

والموت وحده هو الذى استطاع أن يقتلع منه هذه المحبة . أما أنا فقد فقدتكما جميعاً فى ريعان الحياة فأنا لذلك أجدر منك بالشكوى وبالمرحمة » . فردت الدوقة على هذه التهم الموجهة فى ظرف غير ملائم بأرق العبارات وأكثرها تواضعاً قالت : كنت أود أن أخلط دموعى بدموعك وقد حسبت أن ليس لى من عزاء عن مصابى إلافك فإذا بى مضطرة بدلا من ذلك أن أبرئ نفسى أمامك ، وأكثر من ذلك أهمية وأشد قسوة أن أبرئ مسيو دلكسمبور الذى أحبك واحترمك ولم يعتبر لنفسه فى العالم صديقاً أعز منك ؛ فلقد مرض مدى أربعة أشهر مرضاً لم يحسب أن الموت يعقبه ولكنه منعه عن الكتابة : وكثيراً ما كان يحدثنى عنك ويقول إنك لو كنت فى مومرنسى لجت للإقامة هنا ( فى باريس ) . وقد قرأنا له خطابك الأخير فلم يترك عبارة رقيقة إلا قالها عنك . فأصبح لك التوبة عن ظلامة أسأت بها لذكراه ، ولئن كان موته فجأة قد منع عليه أن يفكر فى أى شىء فى ساعاته الأخيرة فإنى أكرر لك أنه أحبك وأحبك من كل قلبه حتى لكان بعدك عن هذه الديار من أشق الأشياء وأشدّها على نفسه . فلم يبق طويلا بعد سفرك حتى اعتلت صحته وحتى حل به المرض ، ولست أطيق أن أدخل فى تفصيلات مرضه الأليمة التى يخبرك عنها لاروش متى شئت . تصور يا سيدى أنى لم أتركه حتى آخر أنفاسه ثم لا أحب إلا أن أسكن الغرفة التى مات فيها ، وإنى أشكرك على ما تقوله عنه فى خطاب مطبوع فذلك موجز ومؤثر ، أما عن تبرئة نفسى فإنك لا تنكر أنى أنا التى كتبت إليك أخيراً وأنت لم تجبني وقد مضى على ذلك زمن طويل . أما قلبى فلا شك أكيد فى محبته رقيق فى ولائه . فبالله لا ترهقنى وأنا فى مصابى الأليم باطراحي وراء ظهرك واعلم أن لك من الحب دائماً أرق ما فى قلبى . . . » وقد رد روسو على هذا الخطاب بشىء من السكينة والطمأنينة . والحقيقة أن مدام دلكسمبور لم تنقلب عليه يوماً كما انقلب غيرها ولا أهملته بل كان هو كأنه ينتهز الفرص لإيجاد المتاعب آملاً أن يزداد عندها بذلك إعزازاً ومحبة .

وبقيت علاقاتها به كأحسن ما يكون الود والعطف والإخلاص حتى سنة ١٧٧٠ وإن كانت قد فترت بعض الشىء من أيام انقطاع روسو عن فرنسا. على أن الفتور لم يبلغ بها أبداً حد النسيان ، بل لقد طالما شملته الدوقة بعنايتها وحمايتها فى سويسرا وإنجلترا وفرنسا . أما بعد سنة ١٧٧٠ فقد نسيته تمام النسيان أو كادت

لكثرة ما طعن في ولائها . وظل بعد ذلك في تجوال وارتحال بقية حياته .  
 أجملنا في هذا الفصل أهم أزمنة حياة روسو : ففيه ظهرت كل كتبه  
 القيمة التي خلدت على الزمن عظمته وأثبتت للعالم قوته . وسنعرض في الفصول  
 الآتية - والتي سيضمها الجزء الثاني من هذا الكتاب - ما تحتويه هذه الكتب  
 وغيرها من صور وأفكار كما نجى للقارئ على ما بقي من تاريخ حياة رجل بدأ  
 وضعاً بائساً ومات فقيراً تعباً وقضى حياته مريضاً محزوناً ولكنه ترك للعالم ثروة  
 فكرية لا يزال العالم وسبق يتنعم على حسابها عصوراً طوالاً .